أرتيميســــــــيا

Artemisia

أرتيميســـــــيا

Artemisia

المؤلفة

هبة رفيق

الطبعة الأولى

1439 هـ- 2017م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2017/5/2267)

هبة رفيق محمد

أرتيميسيا / هبة رفيق محمد .-عمان:دار زهران للنشرالتوزيع، 2017

(   ) ص.

ر.أ. : 2017/5/2267.

الواصفات:/القصص العربية // العصر الحديث/

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5331289 – 6 – 962+، ص.ب 1170 عمان 11941 الأردن

E-mail : Zahran.publishers@gmail.com

www.zahranpublishers.com

الإهداء

إهداء إلى:

والدتي العزيزة التي فارقتني لتجاور رب العالمين.

شعلة طريقي والدي العزيز.

إلى إخوتي أكباد فؤادي.

وإلى صديقتي المحبة دانا مرداوي التي لطالما كانت بجانبي.

وإلى كل مريض، يقاوم ويحارب لك مني أجمل سلام.

هبة رفيق

المقدمة

في البداية فإن هذه الرواية ليست من أفكار أو صور أو تخيلات، إنما هي رواية حقيقية في أحداثها وعباراتها ممسوجة بعبق من الخيال والفكر. إن الأحداث هنا ليست من محض الصدفه، إنما هي من محض الواقع. أود فعلا قبل أن أبدا سرد روايتي، أن أخبرك أيها القارىء أن لك كامل الحرية في النقد والتعبير، قد ترغب حتى في دخول تام لك في داخل روايتي. أنا أعطيك كامل الحرية في الغضب أو الصراخ، في البكاء أو الضحك. ستقول في داخلك ما هذه الرواية؟؟ هل هي من نسج الخيال؟ هل هي رواية بوليسية؟ هل هي مضحكه؟ ما نوعها ؟؟؟؟.

سأخبرك أمرا هاما، حتى أنا أرغب في معرفة نوعها. أنا لا أعلم. حقا أنا لا أعلم. أحاول كثيرا في الكشف عن نوعها لكني سأخبرك سرا: إن نوعها شديد الغرابة، متداخل الأفكار والحقائق، ترغب فعلا هذه الرواية في إستطراد العالم الخارجي بل والداخلي، النفساني منه والوجداني. حاولت كثيرا قبل كتابتها أن أمتنع عن ذلك، رغبة مني في إستجماع الحكم، والخبرات كلها، ولكن في الحقيقة توصلت لحكمة شديدة في الأهمية، أنه لا يوجد تاريخ محدد لتستجمع الحكم كلها والخبرات جميعها. كل ما عليك هو أن تصل للذروة في الشي ...... أعلم أنك تتسائل بداخلك وتطرح هذا السؤال حتى لجوارحك. ما الذي تقصده؟ ما الذي ترغب بذكره؟ ما حقيقة هذه العبارة؟ أنا أثق بك أيها القارىء بأنك ستعلم الاجابة مع الخبرات المناسبة لوحدك ...

هيا بنا سأبدأ الان برحلتي هذه، إذا كنت ترغب بالفعل بالقدوم، فعليك الجلوس بهدوء مسترخيا لحواسك وأعصابك، تشتفي كوب من القهوة قرب تلك النافذه. سأقول لك إبتعد عن هذه الفكرة فأنت لست ملزما بها. أنت تستطيع القراءة حتى بجانب شخص يحتضر. سترى معي كيف سيكون ذلك ....

ساندرا

ساندرا إسم لاتيني جميل قد سمعت به قبل عدة سنوات. ولقد أثار الرغبة الشديدة في داخلي في معرفة معناه.

إن إسم ساندرا هو إسم بطلتي. أعلم أن إسم روايتي ليست ب ساندرا ولكن هذه البطلة ستجعلك ترغب وبشدة إكراما لها أن تكون ملكة هذه الرواية.

إن إسم ساندرا يعني الفتاة القوية وساندرا فعلاً في هذه الرواية لن تخذلنا أبدا. سنبدا حكاية هذه الفتاة من البدايه سنرى جانبا منها قبل أن نغوص في بحر عميق، لذلك سنجذف قليلا في البداية قبل الغوص في الاعماق.

نبدأ بذكر شيء من طفولتها وهي بين أحضان والديها تكتسح العائلة بذكائها وحبها للمغامرة، بالاضافة الى الرغبة الشديدة دوما في إكتشاف البشر وبماذا يختلفون. الأشرار منهم والأخيار. علينا فعلا معرفة كيف كانت تفكر هذه الصغيرة . هيا بنا ....

لقد ولدت ساندرا مع ثلاثة من الذكور، إذن لوحدك ستعلم أن المجتمع سيكون ذكوري بحت، ولكن ساندرا ترغب دائما في التميز ربما لوجود هؤلاء الذكور وربما لا. ربما هي ممن يعشقون التميز، التميز بينها وبين ذاتها، ذاك النوع هو الأشد رونقا. ربما ترغب صديقتنا بالتميز أكثر لانها قد تربت على يد إمرأة عظيمة.

إن الأم العظيمة هي التي لا تقود أبناءها وإنما هي التي تغرس فيهم حب الذات ثم حب الأخرين. الحب في التميز ثم الرقي بالأخلاق والتصرفات. الرقي بالعلم والمعرفة. هذا هو ما تغرسه الأم في قلوب أبنائها وأن يكونوا أقوياء في مواجهة الأيام والأزمان ....

لقد كانت ساندرا ممن يداومون على دراستهم وكانت في ذات الوقت تعود للمنزل من أجل الأعتناء بأخيها الصغير، الذي قد ولدته والدتها قبل عدة شهور، فالأم إمرأة عاملة أيضا. قامت الأم بتعليم ساندرا كيفية الأعتناء بأخيها الصغير، ولكن ساندرا كانت أيضا ذكية جدا في التقاط أدق التفاصيل. هي تمتلك البراعة التامة في الحفظ والمراقبة، حتى لو كانت مجرد لمحة صغيرة فبالنسبة لساندرا هذه اللمحة جديرة بالأنتباه مهما كانت ..

كانت في البداية تراقب والدتها كيف كانت تقوم بواجباتها إتجاه أخيها الصغير. كانت تشعر ساندرا بالحزن أحيانا لأنها تفتقد والدتها التي في العمل، وتفتقد اللعب مع صديقاتها اللواتي يسكن في الحي نفسه، ولكن ساندرا كانت تقوم على الأعتناء بأخيها على أكمل وجه وبرغبة مليئة بالحب والأهتمام .

كانت ساندرا متفوقة في دراستها منذ صغرها. كانت والدتها تقدر كل شيء تقوم به ساندرا. كانت ساندرا مدللة كثيرا ولكنها تستطيع أن تحمل الجبال بكل ما أوتيت من قوة وعزم ... ما السر ؟؟؟ إن السر في ذلك هو الحب والقوة، إنهما سلاحان فتاكان، شديدا الأفتعال في كل وقت وزمان ومكان إذ ما إجتمعا في الشخص ذاته ..

إذن فقد أصبحنا نعلم القليل عن شخصية بطلتنا، هذه الفتاة شديدة الجمال والجمال ليس كما نظنه، الجمال الخارجي فقط بل الروحي أيضا، ذاك الجمال الذي يشع من الداخل ليزيد الخارج بهجة وجمالا لتصبح ساندرا أجمل فتاة في الحي بأكمله، ولكن ساندرا على يقين دائما أن الجمال الداخلي حينما يزداد وينبعث من الداخل الى الخارج ، فهو لا يزيد صاحبه الا رونقا ونقاء، ينشر السلام والرقي والحب في صاحبه.

إنني أرغب في ذكر شيء بسيط عن طفولتها حتى نستطيع سوية فهم كيف إستطاعت فعل كل ذلك، ما هو؟؟ سوف تعلم ما هو ولكن ليس الأن. لكننا سوف نرى الإرادة، سوف نرى العزيمة، سوف نرى بعض الأحزان ولكننا سنكمل معا. سنخوض في بحر الإنسان والإنسانية.

كيف كانت تمضي أيامها العادية قبل أن تدخل مرحلة البكالوريوس؟؟؟ سنبدأ بذكر أمر هام، المهام التي توجه للفتاه بجميع المجتمعات في جميع أنحاء العالم تكون أكثر من مهام الرجل كونها هي الأم والزوجة، الصديقة والحبيبة، المعلمة والعاملة. الأم هي المدرسة قبل كل شيء.

أشدد به أزري

في البداية علينا أن نعلم جميعا أن الموت حقيقة واردة في أية لحظة. علينا أن لا ننكر أبدا أنها حقيقة شديدة الصعوبة. طعمها حلو ومر. لكن كيف؟ كيف يعقل أن يكون للموت طعم؟ الا يكون مرا لوحده؟ كيف يصبح حلو المذاق؟ ما الذي تقصدينه؟.

الحقيقة التي لا بد لنا جميعا من معرفتها أننا لسنا سوى بشر، نحن لسنا مخلدين، سوف نسقط في أية لحظة. نركن هناك الى الزاوية، يوضع القليل من الأسمنت أو تراب فوقه حصى. وإذا أردت أن يصنع لك المسؤول عن الدفن معروفا، عليك أن تدفع له القليل من المال وبعد أن تستشعر عروقك شدة العطش لرؤية إسم ذلك الشخص العزيز على قلبك يوضع أسمه على ذلك الحجر سواء أكان كبيراً أو متوسط الحجم، حتى لو وضع الميت في تابوت أو في حفرةٍ فقط أو أحيط بالزهور والأشجار، حتى لو كانت المراسم شديدة التأبين أو حتى لو كانت الجنازة كثيرة أم قليلة بالمصلين، إعلم يا صديقي أنك سوف تكون حزينا، سوف تكون شديد الحزن والألم. سترى أن الكون كله لا يستحق كل ذلك العناء. الموت صعب جدا ولكنه أمر لا بد منه ونحن كبشر نخاف التفكير فيه، ونحاول قدر الإمكان أن لا نتحدث فيه، لكن ذلك دون جدوى فنحن لا نستطيع الهرب. الموت مؤلم جدا حينما تفقد عزيزا ومحبا، لكن الحقيقة ليست كذلك أبدا فالموت جميل، جميل بالفعل. الموت جميل حينما يكون في سبيل الدفاع عن الوطن، جميل حينما يكون في سبيل الدفاع عن مبدأ جميل، جميل حينما يخلص إنسانا مريضا بمرض عضال ليس له شفاء.

حتى أن بعض المرضى في أنحاء العالم يوصون بإبرة الرحمة تلك الإبرة التي تخلصهم من الألم والعذاب، هم يرون الموت جميلاً، هو جميل بالنسبة لهم مع أنه صعب جدا، فهم يعلمون أنهم سيفقدون رؤية أحبتهم ولكن الموت أجمل من الألم بالنسبة لهم. في الحقيقة حينما أفكر في الأمر هل المرض حقا عذاب؟ قد يكون الأمر كذلك ولكنني لا أعتقد أن الرب يحب أن يرى مخلوقاته تتعذب، فمثلا حينما كان لدي أرنب وكنت أحبه جدا حتى أنني قد أسميته فرناندو وأحضرت له أرنبة أسميتها سيلفيا، كانت شقية جدا

ولكن في يوم من الأيام كنا نستعد للأنتقال من المنزل وكنا مشغولين جدا، نسينا أن نطعم الأرانب ففارقت الحياة، كان مشهد محزناً ومتعباً لقلوبنا حينما رأينا تلك الأرانب بتلك الحال. لذلك أرجوك أيها القارىء لا تسخر مني وتقول البشر يموتون وموتهم مفجع أكثر، ومن قال لك أيها القارىء أنني لم أرى موتى من البشر. لقد رأيت الكثير من أحبائي وأصدقائي حتى أنني رأيت فتاة فارقت الحياة أمام باب المحاضرة. أنا أريد ان أخبرك أن كل شيء يذهب ويزول، حتى الحيوانات فقدها صعب فالحيوانات جميلة، هي تحب من يرعاها ويعتني بها، تكن له كل مشاعر المودة والمحبة ...

لنعد إلى حيث كنا. كنت أتحدث أيحب الرب أن يرى مخلوقه يتعذب؟ سأقول حتما لا. إذن لماذا نمرض؟ ما السبب؟؟؟

حينما نتقدم للإمتحانات في الجامعات أو في المدارس أو حتى في معاهد التدريب أو اللغة، عليك أن تدفع المال المتوجب عليك ثم تتقدم للإمتحان وبعد ذلك قد يكون لك النجاح أو لا يكون.

الفكرة ليست هنا. الفكرة أنه عليك أن تدفع بعضا من المال ثم تتعرض للإختبار ثم تنجح وبعد ذلك تتلقى عبارات المدح من أساتذتك أو والديك أو أصدقائك أو بالأحرى منك نفسك. في النجاح عليك دائما أن تركز على إسعاد نفسك قبل الأخرين، لا بأس لو كنت تجمع في حبك للنجاح أشخاصا ساهموا في بنائك ولكن ركز دوما على إسعاد نفسك، هكذا ستتمكن حتما من الوصول رغم الصعاب كلها ..

الأن علينا العوده إلى ما كنا نتحدث عنه الأوراق والأختبارات والدفع وما إلى ذلك. إذن عليك أن تعلم أن الحياة تقاس بنفس المقياس. لا تعش أبدا في الكذبة التي تقول أنك ستنجح دون أن تخسر أي شيء أو أنك سترضي الرب دون مقابل. لا يوجد شيء في الدنيا دون مقابل، عليك أن تدفع ثم يسمح لك بالمرور ثم ستجزى بواقع عملك ونواياك. إياك الاستسلام لإن الإستسلام هو طريق الجبناء فقط، عليك أن تخوض التجربة، إدفع ولا تبخس أبدا وأمضي في حقول الرب والسلام.

المرض إختبار أيضا للبشر، هل سيصبر ذلك المريض؟ هل سيأخذ بأسباب الشفاء؟ أم هل سيترك نفسه حبيسة الألم والمرض. عليك الدفاع وبقوة. عليك أن لا تستسلم. وقبل أن نبدأ بساندرا وقصتها. القصة التي جعلت ساندرا تبدل الكثير من مفاهيمها حول الحياة، والحب والعمل. كل شيء يا صديقي تستطيع الصمود أمامه إلا الموت ...

الموت ليس بيدي وبيدك، ولكن علينا المضي في هذه الحياة، ونحن نشعر بكل ثقة من أن هذه الحياة إنما هي هبة من الله إليك. كي تصنع نفسك وترتقي وتمضي........... إجعل من الموت مصدرا لقوتك. تنظر في ذلك الزجاج الموضوع على الحائط، وتقول أن أعلم بأنني سوف أموت بيوم من الأيام ولكنني أريد أن أصنع ذاتي قبل كل ذلك أو على الأقل أن أبدأ في المحاولة حتى يحين موعدي، لا تجلس في إنتظار الموت، فالموت يا صديقي لا ينتظر أحد، بل أبدا في العمل حتى تكون مستعدا للقاء الموت.

كلنا يعلم من هو ستيف جوبز، أنا لن أبدا بالثرثرة والحديث عنه ولكنني أريد أن أخبرك أن سر ذلك الأنسان العظيم أنه كان دائما يقول: أنه يتوجب علينا دائما أن نرى أن اليوم الذي قد إستيقظنا فيه أنه قد يكون أخر يوم في حياتنا ..لماذا؟؟ لأن تلك العبارة مصدر للقوة أيضا. فعلا هي مصدر للقوة. كيف ذلك؟ الموت يا صديقي هو مصدر تلك القوة. الموت يستحق التأنيث أيضا كالقهوة تماما، كلاهما لا بد منه، كلاهما له طعم قد يكون حلوا وقد يكون مرا. وكلاهما مصدر للجمال والقوة والخوف معا.

سأخبرك أمرا، أنت قد تعيش في كذبة ما، قد تكون هذه الكذبة سببها أحد الأشخاص أو قد يكون أنت من أختلقتها، ولكن بالنهاية ستكتشفها لوحدك. ستعلم أنه مهما حصل سيكون دائما هناك طريق لا بد منه من أجل العودة. نعم هناك طرق عديدة من أجل العودة، وقد تحتاج لصديق، أخ، قريب أي شخص قد يكون هو من يشدد أزرك وقد تشد أزرك مجددا بنفسك، قد تكون أنت المشكلة والحل سويا ..

علي أن أصمت قليلا فحان الأن دور ساندرا. بطلتنا ستهوي قليلا إلى القاع ثم ستعاود إلى القمة مجددا. ترتجفها التيارات ولكنها تأبى الهزيمة. سنبدأ ولكن عليك توخي الحذر، قد تخاف أو تحزن لكن لا بأس فهذا أمر لا بد منه هنا. هذه حقائق ونحن لا نستطيع الهرب منها دوما، علينا أن نتصادم حتى في بحر مخاوفنا و أحزاننا. لكن إياك أن تقتل قلبك ، فعلا هذا هو ما يرغبون به أن يقتل قلبك. هذه هي الحقيقة هم يرغبون بذلك وبشدة. أن يقتل قلبك ذلك شيء مخيف جدا هو حقا أشد خوفا من الموت أو الهلاك. لكنني الأن يتوجب علي الصمت ولا أكمل الحديث فقد حان دور ساندرا، بطلتنا هي من ستتكلم ولست أنا.

هيا بنا. قليلا قليلا أود قول شيء قبل أن تبدأ ساندرا ذلك لأن ساندرا قد تنتصر علي بكلماتها و أحداث تجاربها .. أريد أن أخبرك أن ساندرا ستجوب بك في عالم حقيقي ولكنه عالم آخر، عالم خلف الجدران، لذلك كن مع ساندرا يا صديقي ولا تتركها .....

بالقلم وبالريشة، بالخوف وبالحزن، بالقوة والعزم

فلنبدأ يا صديقي قصة بطلتي ....

الطابق الخامس غرفة - 552-

الطابق الخامس!!! كلما أمضي في هذا الطريق وفي ذلك الطابق بالقرب من تلك الغرفة تعود لي الذكريات من جديد. سأحكي حكايتي دون مساعدة أحد حتى أنتي أيتها الكاتبة.

أنا أدعى ساندرا. نعم سميت ساندرا وأنا سأخبرك أمرا أنني أتعب جدا كلما تذكرت هذا الطابق. سأبدأ من البداية وسأكمل لكم القصة، لكن سنبقى في نقطة الصفر وسأعلمك لماذا ولكني لن أخبرك جهرا.

كنت منذ صغري أحب القراءة والدراسة. كنت ممن يستهويهم مسك كتاب ما ومن ثم البدء في قراءته. ربما كان ذلك هو السبب في إختياري لدراسة الأدب واللغات في الجامعة، مع أنني قد ترعرعت في عائلة معظم أفرادها يدرسون الهندسة والطب. لكن دائما ما كان يطرح أمامي هذا السؤال، لماذا اخترت هذا المجال يا ساندرا؟ كانت معظم أجاباتي مختصره، أقول لهم فقط لانه يعجبني وذلك يكفي. هذا أمر جيد ولكنه ليس بالكافي في الحقيقة أنني أحب الأدب وبشدة وتعلم اللغات الأخرى يتيح لها فرصة التعلم أكثر.

ألم أقل لك منذ البداية أنني أحب القراءة والدخول في العالم المجهول أمر جميل مهما كان ذلك المجهول، إلا أنني أرغب دوما في دخول ذلك المجهول، وفي الحقيقة الجانبية فإن تعلم اللغات يتيح لي أن أقرأ و أكتب بالإضافة إلى معرفة معارف جديدة. حينما ترغب بالتميز عليك أحيانا أن تدفع قليلا ثمن مطالبك.

الصعوبة الحقيقة التي تتوارى في الخفاء، أننا لا ندرك حقيقة أنفسنا. إن الإجابة على سؤال من أنت؟ لن يكون الإ في المواقف الحاسمة. هذه المواقف هي التي تولد الصدمة بينك وبين ذاتك. عليك إذن توخي الحذر بينك وبين نفسك كي لا تندم حينما تصطدم بينك وبين نفسك في تلك المواقف. ستدرك معي ما أقوله فقط حينما نسقط سوية في الطابق الخامس بالتحديد في غرفة 552.....

كنت في ذلك الوقت في السنة الدراسية الأخيرة، حينما جاءني خبر مفجع جدا، كنت في أروقة الكلية أبتسم، أضحك، أفكر في الوقت الذي سأتخرج فيه وأقول لنفسي، متى ستنهين دراستك يا ساندرا، كم سيكون جميلا فبعد ذلك سأبدا بتحقيق أحلامي. وفي تلك الساعة، بالتحديد الساعة الرابعة والنصف، كان اليوم هو يوم الثلاثاء.

لا أذكر حتى فيما إذ كان كوب قهوتي بين يدي فلطالما كنت مولعة بها، كنت مولعة دائما بفكرة الجلوس وحدي والتأمل وشرب كوب قهوتي، كانت بمثابة الجنة بالنسبة لي وما زالت. كنت أجلس هكذا وبتلك الطريقة حتى أتمكن من قراءة أفكاري.

ما الذي حصل بعد ذلك؟ لا أعلم لكنني أقسم لك يا صديقي أنني كنت جالسة وأنصت لأفكاري، لكني شعرت بمشاعر غريبه من بينها الخوف ولا أعلم لماذا؟.

كل ما أذكره أنني كنت قبل ذلك خارجة للتو من محاضرة رائعة جدا، موضوع خاص في الأدب الأنجليزي للدكتورة رلى قواس، أذكر ذلك وكأنه اليوم، وأذكر أيضا حجم الثقل الذي كانت تحمله تلك الأنسانه الرائعة قبل أن تكون دكتورة وعميدة في السابق، كانت تناضل دائما من أجل المرأة مثقلة بهمومها والرغبة الشديدة في نشر اليقظة لديهن في عدة جوانب. أذكر أيضا كم كانت محاضراتها مفعمة بالحياة، عليك أن تعلم دوما أيها الطالب الذكي. أنت بمقدورك وحدك، تستطيع معرفة من هو مدرسك العبقري وليس الذكي فقط.

الأن علينا العودة إلى ما كنت أفكر به، في تلك الساعة كنت أشعر بالخوف الشديد، فالتقط هاتفي وأتصلت بأخي، قلت له كيف حالكم، وكيف هي أمي وأين أنت الأن ؟ قال لي هي بخير، ولقد ذهبت مع والدي للإطمئنان على صحتها. صدقني أنا لا أعلم ولكني ما زلت أشعر بالخوف. أقفلت هاتفي وتركت الجامعة وعدت إلى المنزل، منزل عائلتنا.

شاهدت شيئا غريبا لم أعتد على رؤيته؟ البيت لا يوجد به أحد؟ يا ترى ما القصة؟ وما الذي حدث؟ أين هم؟ ألم يعودوا؟ إنتظرت و أنتظرت وأطلت الإنتظار ولم يأتي أحد، لكن بعد عدة دقائق وصلت والدتي ووالدي كان ممسكاً بيدها ولم يتكلم أو حتى أن يبتسم كما يصنع كل مرة. أجلس والدتي ولم يتكلم بعد، والغريب في الأمر أن والدتي لم تتكلم هي الأخرى. ما القصة يا ترى؟ كانت عيناها هادءتان ولكن الغضب يملؤها، وكلاهما لم ينظر نحوي، لم يتكلما لدقائق وكنت أكلهما وشعرت أنهما لا يستمعان لي. كلاهما يذرف الدموع، وما زلت لا أعلم ما القصة؟ كان ذلك المشهد أصعب وأغرب مشهد رأيته في حياتي. سألت أمي كيف حالك؟ لم تتحدث لكنها أصبحت تبكي وبشدة. سألتها ما الأمر؟ ما بك؟ ما الذي أصابك؟ أرجوك أخبريني. لم تقل سوى عبارة سوف أموت. لقد كانت عبارة تختم جميع الحروف والكلمات. ما زلت إلى الأن لا أعلم ما القصة؟ نهضت إلى والدي أسأله علني أجد إجابة. لم يتبقى سوى أخي ذهبت أسأله، ربما وجدت نصف الإجابة بدأ بالصراخ، علمت حينها أن الأمر صعب وشائك. لقد قذف إلي خبرا صعباً، قاسياً جدا. ستعلم مدى قسوته أنت أيضا، إنه شديد القساوة. والدتي أصبحت فجأة مصابة بسرطان الرئة. كيف ومتى؟ من هنا يا صديقي ستبدأ معي رحلتنا نحو الطابق الخامس. ركز معي جيدا إن المرض والمأساة والعلاج الذي سأحدثكم به لا يحصل هنا فقط بل يحصل في كل الأمكنة والبلدان. لقد رأيت وبحثت . جميع المرضى وكل هؤلاء الأطباء وكل تلك الأدوية سيذهبون بك إلى نفس النقطة، أنت لن تجد أختلاف كثيرا سوى بالنوعية والطريقة لكن الكيفية واحدة في جميع أنحاء العالم. ركز هنا جيدا الأختلاف هو مجرد أختلافاً بالطرق ليس أكثر. الحياة كلها يا صديقي تمضي بنفس الطريقة. ما هي هذه الطريقة؟ سأخبرك أنا، في البداية أنت تخرج من بطن والدتك ليس لديك أدنى قدرة لفعل أي شي سوى إطلاق صرخاتك لتعلن قدومك إلى هذه الحياة. ثم ستبدأ بالنمو وتكبر ثم تكبر، ستشيخ بعد كل ذلك وتموت، إذا نحن تقريبا قريبون جدا من مراحل الفصول الأربعة ولكن الترتيب قد يختلف أحيانا وذلك يعود لك ربما. لذلك عليك أن تعلم أنني صادقة معك أكثر من الجميع. أنا لا أحب الكذب، ولا أن أشعرك حتى بأن ذلك ليس بموجود، هذه هي الحقيقة.

إن مريض السرطان يا صديقي كذلك، هو يتعرض أيضا لمراحل الفصول الأربعة وليس جميعهم يمر بنفس الطريقة. إن مريض السرطان يتعرض لنمو في الخلايا السرطانية، ذلك النمو الذي يتطارد مع مرور الوقت، مع أنه هناك الكثير من مرضى السرطان الذين يتلقون العلاج، ويشفون من ذلك المرض، لكن هناك منهم يشفى ثم يموت ومنهم من لا يشفى ويموت إذن يا صديقي عليك أن تعلم أنك كالبقيه، لا تكترث لبعض الأقوال، لا تكترث لبعض التصرفات التي تخبرك وكأنك أصبحت ميتا لكنك تتنفس فقط، أصمتهم بقوتك وبعزمك يا صديقي، لا تكترث، نعم لا تكترث ....لكنني سأخبرك قصة يا صديقي هي ليست من أجل الحزن ونشر فكرة سوداء، هي قصة والدتي والدة ساندرا، لقد كانت ممن أصيبوا بهذا المرض وبذاك النوع الذي قد أخبرتك عنه، سأخبرك هذه القصة لكن لا تيأس. لقد كانت والدتي بالدرجة الأخيرة، لقد كانت في الدرجة الأشد خطورة، ومع ذلك كانت تعيش أيامها بكامل عفويتها وأمالها.

أنا أرغب في الحديث عمن قد وصل إلى هذه المرحلة، هذه المرحلة التي يخبر فيها الطبيب مريضه أن لا أمل من شفائه، ويتوجب عليه العودة إلى منزله ، والجلوس مع أصدقائه و أبنائه و أخبارهم عن مدى حزنه لأنه على وشك الذهاب. إعلم بأنه لا يوجد أحد يمتلك الصلاحية والقسوة ليخبرك بهذه الطريقة، وبتلك العبارات.

من أنا ومن أنت لنخبرهم بأن عليهم الذهاب والموت في منازلهم؟! حتى لو كنا نعلم بحالهم، من نحن لنقرر ساعة وفاتهم!! حسنا من واجب الطبيب أن يخبر مريضه ويعلمه بوضعه، ولكن بالطريقة والاسلوب المناسبين، قد يملك ذلك المريض فرصة للشفاء، ولكنك قد تكون أنت سببا في وفاته بكلماتك وبعبارتك وبطريقتك، عليك دائما أن تزرع الأمل مهما كانت النتائج. أنت طبيب، ذلك يعني أنه يتوجب عليك تقديم العلاج، مهما كان وبكل الطرق الممكنة، مجرد المحاولة تكفي. على الأطباء أن لا يبرروا لأنفسهم أنهم قد رأوا الكثير ممن وصلو لتلك المراحل وقد توفي كل من كان يعاني بتلك الطريقة. أنت ستكون مجرد قاتل. نعم أنت قاتل، إذا كنت كذلك إعلم بأنك لم تعد تمدهم بالأمل والحياة او حتى الشفاء أو حتى الرغبة بالشفاء.

سأخبرك كل شيء. أنا أحبك جدا، ومع أنني لا أعرفك ولكنني سأخبرك الحقيقة، ولكن عليك دائما أن تكون قويا جدا.

سأخبرك يا صديقي أن ساندرا هي التي تتحدث ولست أنا. أنا أصغي لها فقط، مثلك تماما. لكنها تسمح لي بالعودة حينما أرغب بذلك. أشعر أحيانا وكأن مرض السرطان شبيه بالطاعون الذي قد إنتشر في القدم، هو مرض نهايته وشيكة ولكن المؤلم أن هذا المرض مراحله متعبة، ليحفظ الله صحة الجميع ويشفي كل مريض، ولكن المصابين بهذا المرض يا صديقي وأخبرك مجددا من قد وصل للمرحلة الأخيرة كما يصفها الطب، يعانون وبشدة، يعانون من أعراض شديدة الصعوبة، يعانون من بعض البشر الذين يشعرونهم ويخبرونهم أنهم مجرد أموات، وسيبلغون ذلك المصير في أي لحظة. هناك بعض المرضى للأسف لا ينصتون جيدا لما تحدثهم أعضاؤهم، فهم ينظرون على أن تلك الأعراض والأوجاع ستذهب وتزول، وأنها أمر عادي، ولكن الكارثة تكون هنا حينما يصل المريض الى تلك المرحلة ويصعق بها فجأه ويكون قد صمت على تلك الأشياء التي تحدث معه وكأنها شيء عادي جدا . هنا تقبع الكارثة أيضا .

الإدخال الأول -لا تتركني وحيدا-

الإدخال الأول ......أذكر قصته جيدا. أذكر تفاصيله الصغيرة. أنا أذكر أصغر التفاصيل في كل شيء، ربما ذلك يكون سبب للسعادة أحيانا وسبباً للحزن في أحيان أخرى. أذكر جيدا ما حدث في هذا الإدخال. أولا عليك بوسيلة نقل حتى تتمكن من الوصول إلى المكان المراد، ستستقل سيارتك وستركبها، لكن الركوب هذه المرة ليس كأي ركوب قد عهدته سابقا يا صديقي، فأنت عليك أن تصطحب من تحب وهو مريض، متعب جدا، وجروحه كثيرة، لا حد لها.

أذكر أنني كنت مع والدتي وأخي ووالدي، ذهبنا سويا كي ندعم والدتي ونساعدها ولو باللعب بالمفردات. ذهبت لأقطع وصل الإدخال، ثم جلسنا معا ننتظر وكان هناك الكثير من المرضى. أتذكر جيدا ذلك الطفل الصغير، كان طفلا بعمر الزهور، يجلس بجوار والدته، كان في قسم الأورام، كان هزيلا جدا، ويبدو أن المرض قويا جدا عليه، إلا أنني خجلت من نفسي أمامه، كيف لا؟ طفل صغير ولكنه لا يكترث لمرضه، لا تقل لي هو صغير ويجهل ما به، كيف يجهله يا صديقي وهو الذي يعاني كل ذلك الألم، ذلك الألم الذي تخشاه الأسود في مناطقها. تسألت كثيرا لماذا نحن بحالة بؤس شديدة بينما هو فلا؟ لماذا؟ هل نحن مدركون للنهاية وهو لا يدرك ذلك؟ أم أنه مختلف عنا، هو ليس حزين على نفسه كما نحن نفعل. كنت أنظر لمن هم حولي، كان ذلك أول يوم في حياتي أدخل فيه قسم الأورام، كنت أحلل كل شيء أراه، أنظر وأفكر مليا.

لقد إنتظرنا كثيرا فالمرضى كثر، تركت والدتي وأخي، وأدعيت أنني أرغب في رؤية الطبيب أولا. ذهبت في الحقيقة لأراقب ذلك الطفل وكان قد حان دوره. كنت سعيدة في تلك اللحظة لأن الطفل لم يقفل الباب.

كان ضحوكا جدا. كنت أرغب في رؤية ردود ذلك الطفل، الأم مبتسمة جدا، كان ذلك تصرفا ذكيا منها، علمت حينها أنها إمرأة ذكية وقوية، فهي تعلم أنه لا يتوجب عليها أن تشعر طفل بشيءٍ آخر سوى أنه طفل كالبقية. هي تحارب بمقربة من إبنها الصغير. لم أكف النظر إلى وجه ذلك الطفل، كان أسم طبيبه هشام، كان الطبيب شديد الروعة، كان يضحك مع ذلك الطفل، وكان يداعبه ويمازحه، كان يخبره أنه يتوجب عليه الألتزام بالجرعات وأنه بخير، كان يخبره أنه في تحسن مستمر.

أذكر أنني لم أرى على رأس ذلك الطفل سوى شعرة أو شعرتان، أو ربما لا وجود لأي شعرة، لكن ذلك الطفل يمتلك شعرة الأمل ..كانت واضحة جدا في رأس ذلك الطفل، كانت ناصعة وبشدة، وتوصلت للإجابة نعم هو يعلم أنه مريض، ويعلم أنه قد يموت بأي لحظة، لكنه غير مكترث، فهو يعلم أن الجميع سوف يموتون بالنهاية، وإذا كان سيموت هو أيضا وفي عمر صغير، كل ما عليه هو أن يكمل أيامه بكل جمال وهدوء ولعب وصخب واذا لم يكن كذلك فهو يعلم أنه سيمضي في هذه الحياة متجاوزا هذا المرض وبكل قوة وضحك. ربما الغضب والحزن الكبيران اللذان كانا عالقين في ذهني قد تلاشيا، ليس تماما ولكن هناك إختفاء لهما، بعد ذلك نادى الطبيب على أمي وقال لها بصوت جميل وهادىء، لقد حان دورك. على ما يبدو أنه في ذلك القسم عدة أطباء ولك حرية أختيار طبيبك. جميل جدا ولكن من يأتي لأول مرة كيف عليه أن يختار؟ على ما يبدو أن أصحاب الإدخال الأول يذهبون إلى الطبيب المسؤول عن كافة الأطباء في القسم ذاته. تذهب إليه، تقرع الباب، يقول لك تفضل. دخلت أنا وأمي و أخي ما عدا والدي، فقد يسكب دموعه ويذرفها في الناحية الأخرى. هو يعلم كل شيء ولا يود سماع المزيد. إن والدي يعلم كل شيء مسبقا. ألم تقل لكم صديقتي الكاتبة أن والدي قد ذهب مع والدتي إلى عدة أطباء مختصين، لقد أخبروه كل شيء. حينما دخلنا لرؤية الطبيب، كان مسؤول القسم ، كان كبيرا في السن، شديد البياض، يرتدي نظارته الكبيرة، كان ينظر إلى مريضه وكأنه عبارة عن رمز ما، أو يعده رقما كباقي الأرقام. بالنسبة لبعض هؤلاء الأطباء وهم موجودون في جميع أنحاء العالم. ينظرون لك على أنك كالبقية، لن تزيد في علمه شيء، سوى أنك ستضاف في كتيب خبراته، وإذ ما كنت صاحب حالة مستعصية مثل والدتي، كل ما عليه سوى أن يخبرك كم أن وضعك سيء جدا وأنه يلتزم عليك العودة إلى المنزل وتمضية باقي أيامك مع أبنائك. صرخ أخي في وجه ذلك الطبيب الذي يعد في زمرة هؤلاء الأطباء، قال له كيف نعود إلى المنزل وهي تختنق، قدم له ولو بعض المساعدة. يا صديقي لو قلنا سوية أن ذلك الطبيب على صواب، ألا تدفعه الإنسانية على المساعدة ولو كان يموت أمامه. سيبرر تصرفه بأنه قد رأى الكثير من الحالات ولم يعد يكترث لأي شيء، لا تبرر أبدا بهذه الطريقة، فحينما أخترت أن تكون طبيبا، أخترته طواعية،

لم أجبرك ولم يجبرك أحد من المرضى أن تصبح طبيبا، لذلك عليك أن تبقى على أنسانيتك مهما رأيت وحدث، بل فأنا أعتقد أنه يتوجب عليك أن تزيد من أنسانيتك فأنت تعلم مدى ألمهم، وما يحدث بهم، كن إنسانا قبل أن تكون أي شيء يا صديقي.

عليك أن لا تميت قلبك، وذلك من أجل القلوب الأخرى. أنت الطبيب وهم المرضى، هم يطلبون العلاج منك لا تخبر أحدا بأنه قد مات قلبك، أرجوك كيف يموت قلبك ؟ قل لي كيف يموت ؟؟؟..

لقد خرج أخي وأخبر أن الطبيب أنه لا يريد أن يقوم بإدخال والدتي إلى القسم، مع أن المسجل كان قد كتب في السجل أن ذلك هو الإدخال الأول لنا. وأخبرنا أن هناك مبنى الإدخال، عليك الذهاب من هناك والصعود بالمصعد إلى الطابق الخامس، غرفة رقم ....

للأسف فقد نسيت رقمها في ذلك اليوم لأن أخي قام بتمزيق تلك الورقة، ذلك لأن الطبيب قام بإدخالنا ليس رغبة منه في العلاج، وإنما تحديا أنه لا يجدي نفعا. خرجنا من المشفى نحو المنزل، كنا في حالة صعبة جدا. قررت والدتي السفر بعد أن أقنعها أخي بذلك، كل ذلك من أجل أن تتحسن حالتها النفسية، فشفاء المريض يبدأ من هناك. لن أخبرك إلى أين كانت وجهتها، كل ذلك لأنني أرغب في الاحتفاظ بقدسية ذلك المكان وعدم الحديث عنه، لأنه كان مكان لطالما تمنيت والدتي الذهاب إليه. كل ما في الأمر أنني لا أرغب في الإقتحام. لا أرغب بذلك أبدا ..

كنت في تلك الأثناء ما زلت في الجامعة، أمارس طقوسي اليومية بشرب القهوة، الجلوس والتفكر فيما حصل وما قد يحصل. كنت أرى فتيات مع شبان، كنت في تلك اللحظة، أرغب في معرفة ما نوع العلاقة، أصدقاء أم أحبة، كانت مجموعة كبيرة كان باديا على الأغلبية أنهم أصدقاء ما عدا شابين وفتاتين، كنت أرى العيون تتكلم لوحدها، كنت أفكر هل أعاني من خطب ما؟ لماذا لست كبقية الفتيات؟ لماذا لا يعجبني أحد؟ هل هو كبرياء زائد؟ ما العلة يا ترى؟ بعد ذلك بدأت التفكير بنفسي وبدأت أحصل على الإجابات التي أرغب بها. ربما لأنني أحب الإنتقاء. لا أرغب بالإرتباط أو معرفة أحدهم لانني أرغب أن أختار وأنا بكامل رشدي،

كيف أريد أن أنتقي وأنا بأمس الحاجة إلى طبيب نفساني، يحاول قدر إمكانه أن يخرجني من حزني الشديد. لم أجد أحدا بصدق، يستتطيع أن يقدم لي المساعدة، فقررت أن أساعد نفس بنفسي، وأنا أقدم العلاج لذاتي دون مساعدة أحد. كنت أقوم بتلك الجلسات الروحانية قبل بدء محاضراتي، كانت من أجمل وأروع الجلسات. نعم فقد كنت هذه المرة طبيبة نفسي لوحدي.

كن رفيق نفسك واصبر

نعم ، نعم الإدخال رقم 2 وكيف لا يكون ؟؟؟ لا أرغب فعلا بإقتحام ذكريات هذا الإدخال وذلك لصعوبته. إعلم دائما أن الصعوبة تكون في البدايات دائما أما النهايات، أنت تعلم، حقا أنت تعلم كيف تكون النهاية ولكن عليك فقط التفكير رويدا رويدا ......

الآن في هذا الإدخال، كان هناك في الطابق الذي بجانب طابق الطوارىء، عدة مقاعد لونها حسب ما أذكر بني فاتح كتلك التي توضع في داخل الجامعات، أو المدراس، وعلينا أن لا ننسى أننا نحن في مستشفى، يخضع فيه الطلبة للتدريب أيضا، إذن فالمرضى هناك لهم عدة تجارب وقصص منها الطريف، ومنها المحزن. جلست هناك بجانب والدتي نتنفس بعضا من الهواء. كان علينا الجلوس هناك فهذه مراسمنا، نحن فقط، نجلس هناك مع أجمل صديقة لنا الأ وهي القهوة. نشتريها من ذلك البائع الذي يملك ذلك الدكان، كان رفيقنا. كان يعلم تماما كيف نحب قهوتنا، بعدما أخبرته أنني على إستعجال قلت له: لو سمحت أريد إثنان من القهوة الحلوة قليلا وكنت أشتري بجانبها قطعتان من الشوكولاته الداكنة لم لا؟ فكلاهما رفيقتان جميلتان، والأن فلنعود لصديقنا البائع، قال لي لماذا أنتي هكذا على قدر كبير من العجلة، ماذا بك يا فتاة ؟ قلت له لا وقت لدي. قال لي : ما دمت تفكرين بالقهوة إذا عليك معرفة أنك تملكين الوقت بل الكون كله، حينها شعرت بسخف في كلامه، لا عجب في تفكيري في تلك اللحظة كنت حبيسة زاوية منعزلة تقتدي التفكير بجامعتي و أمي فقط. هذا ليس خاطىء تماما يا عزيزي القارىء ولكن الجريمة الحقيقية بحق ذاتك، أن تتناسى نفسك وتتناسى جماليات الأشياء البسيطة.

بعد كل ذلك جلست مع والدتي وكانت دائما تقول لي لماذا تأخرتي هكذا؟ لم تكن تعلم أنني أفضل المشي لعدة أميال على أن أستقل حافلة أو ما شابه. كان المشي يمنحني بعضا من الوقت، الوقت الذي لم أعد أجده للحديث مع ذاتي، إنّ الجلوس وشرب تلك القهوة، ولا ننسى أبداً تلك القطع الداكنة من الشوكولاتة، كانت جلسة جميلة جدا بالذات حينما نتبادل أطراف الحديث أنا وأمي. كانت من أجمل الجلسات بالأخص حينما كنا نتحدث عن صديقات والدتي، وعن الأطباء والمرضى. كنت دائما ما أحدث أمي عن الجامعة والأساتذة وكنت أحدثها عن بعض الأشياء التي كانت تثير رغباتي في معرفة المزيد. كان جميل جدا، كنا ننسى العالم بأسره في تلك الزاوية وبعد ذلك أذهب وأمسك بالكرسي المتحرك الخاص بأمي وأوصلها إلى المصعد. أرجوك ساندرا ما الذي تقولينه ؟ أرجوكم أيها القراء أبعدوا تلك الكاتبة عني، فهي لا تعلم شيئا حتى أنتم لا تعلمون.

حينما علمت والدتي بمرضها، أصابتها صدمة كبيرة بسبب ذلك الطبيب مما أدى إلى عدم حركتها، لم يكن بإستطاعتها الحركة كسابق عهدها. كانت من هواة المشي مثلي ولكنها كانت أسرع مني ...

عليك أن لا تنسى حتى لو أنك ذهبت وهاجمت ذلك الطبيب، سيقولون لك: إنه مريض بالسرطان، إذن وبالنسبة لهم، أو بالأحرى بالنسبة للجميع فإن هذا المرض هكذا هي نهايته، لكن السؤال الذي ما زال في ذهني، ما دام هذا المرض لا مناص منه ولا أمل من شفاء صاحبه، لماذا تمارسون أيها الأطباء ذلك النوع من الدراسة؟ لماذا تقومون بصنع تلك الأدوية؟ لقد قلت لك سابقا يا صديقي أنك إنسان، وذلك يكفي حتى لو كنت في أسوء أوضاعك. سأعود وأخبرك ماذا حصل معنا بعد ذلك. أصطحبت والدتي نحو المصعد بعدما قطعت وصلا خاصا بالإدخال ومن بعد ذلك ملأت الأستمارة الخاصة للمشفى، لا أذكر حتى أنني قد قرأت نصوصها، فكل ما في الأمر، أنني كنت أرغب بالإنهاء وبسرعة من أجل والدتي. كنت بعد إنهائي لتلك العادة، أصطحب أمي نحو المصعد فقد حان الأن وقت الأنطلاق. لكنني كنت أرى أناساً رائعين، إعلم جيدا أنك مهما كنت في وضع سيء، فإنه لا بد لك من رؤية أحدهم، أحد أولئك الاشخاص، الذين يقدمون لك المساعدة حتى في إبتسامتهم.

لقد كانت تلك الحقيبة شديدة الثقل على كاهلي. كنت أضع فيها كتبي ودفتر كبير، وحاجياتي الأخرى التي كنت بحاجتها أثناء فترة بقائي في المشفى، بعد إنتهائي من الجامعة، كان علي الذهاب والإلتحاق بالمشفى كرائدة من رواده حتى أن مسؤلي الطابق الخامس، كانوا من كثرة رؤيتي وعدا عنا هيئتي التي كانت تجعلني أبدو وكأنني طبيبة، كانوا يستمرون بمناداتي أيتها الطبيبة عليك أن لا تنسي بطاقتك. كانت بطاقة تعريفية، ولم أعر الأمر أي أهتمام. صعدت مع والدتي نحو ذلك الطابق بالأخص تلك الغرفة التي أخبرتك عنها، في هذه الغرفة سيكون لنا الكثير من الأصدقاء. ما الذي يحدث كالأتي: حينما تدخل الغرفة سيكون أمامك أو بجانبك مريض أخر. كنت أشعر بالسعادة في تلك الغرفة، كان يأتي في تلك الغرفة مرضى لكنهم كما نعلم بشر مثلنا، لذا ستجد قصص كثيرة تحدث في تلك الغرفة، منها المضحك والمحزن، كانت تلك الغرفة تمتلك طباعاً مميزة ، في كل إدخال، كانت هناك قصص مميزة. أنا ساندرا سأخبركم بتلك القصص كلها، لن أكذب عليك بشيء، وسأخبرك بكل الأشياء، جميع تلك القصص والطرائف.أثناء المرور لتلك الغرفة، ترى بعض الأشخاص المرافقين يشعرونك مدى صعوبة وضعك، يثرثرون بصوت منخفض، على كل حال وصلت أنا وأمي لتلك الغرفة، حضرت الممرضة ولا أذكر أسمها مع أنني قد سمعته مرارا وتكرارا، ربما سوء حالتي النفسية في تلك اللحظات، جعلني أرغب في نسيان إسمي. ساعدت الممرضة في وضع أمي على سريرها، بعد ذلك جاء الطبيب ليخبرنا عن الإجراءات التي سوف يتخذونها من أجل والدتي. ذهبت أنا بعد ذلك الحديث الطويل إلى الكافتيريا التي كانت موجودة في ذلك الطابق. كنت أرغب في الهرب من قصص هؤلاء الأطباء والعلاجات وكل ذلك، كانت والدتي في تلك الأثناء نائمة فقد كانت متعبة بعد يوم طويل. ذهبت بعد ذلك إلى النافذة التي في نهاية الممر وكنت أنظر إلى الأبنية والشوارع التي كانت حولنا. كنت أحاول إكتشاف تلك البقعة، كم كانت هادئة. بعد كل ذلك عدت إلى تلك الغرفة ولم أستطع النوم أبدا، أنا لا أستطيع النوم في هذا المكان، لا ترتاح نفسي إلى الخلود إلى النوم وكل من حولي مرضى، متعبون، مرهقون، نومهم العميق سببه تعب النهار الذي يمرون به. كنت أستطيع النوم فقط لمدة ساعة ونصف قبل بزوغ الفجر. كان الإرهاق باديا على وجهي وبشدة. وضع والدتي جعلني أواجه أكبر مخاوفي ألا وهو العيش في المشفى. كان ذلك أمر حتمي لا بد منه. لا مناص من الأمر، انا لا أستطيع الهرب. أكبر مخاوفك، هي أن تقاوم أمر لا تحبه، ستعلمك الحياة أن تواجه كل شيء حتى نفسك ورغباتك.

ستعود طفلا

ستعود طفلا .... نعم سأعود أنا وأنت مجرد أطفال وسنعشق تلك الطفولة مهما كانت. سنتمنى ذلك فعلا وسأخبرك لماذا.

في اليوم الثاني من ذلك الإدخال، وبعد ذلك اليوم الطويل جدا، حل الصباح علينا وكانت الساعة السادسة صباحا، في هذه الساعة سأصف لك ماذا يحدث فعلا. في البداية نحن المرضى نعلم تماما ممن حولنا أنه قد حان الأن موعد قدوم الفطور، وبعد ذلك يبدأ قدوم الممرضات، كنا نستيقظ قبلهن. لكن لماذا أصف نفسي مع ممن في تلك الغرفة ؟ ربما يا صديقي لأنني في ذلك الوقت شعرت أنني جزء لا يتجزأ منهم، فإذا أردت أن تبقى في ذلك المكان عليك فعلا، أن تجعل نفسك تشعر بإنتماء صادقا نحو هؤلاء الأشخاص الذين هم معك في تلك الغرفة. الأن فلنعد إلى حيث كنت أنا، في طبيعة الأمر أنت ولك مرضى هؤلاء وهم بالأغلبية يمارسون نفس اللعبة، لعبة الكلام. يرغبون دائما بالحديث مع من هم حولهم حتى يتناسوا الألم وحتى يسرعون بمضي الوقت . أريد أن اخبرك شيئا يا صديقي ما يحدث مع هؤلاء المرضى بالذات، مرضى السرطان أو أصحاب العمليات الخطرة، أو مرضى القلب، يجب عليهم في أغلب الأوقات البقاء في نفس المكان وعدم الخروج من الطابق أو الغرفة نفسها تحسبا لأي أمر. قد تخرج ولكن لدقائق لا أكثر. فلذلك كل ما هو عليهم هو الجلوس والبقاء يتناغمون مع وحدتهم، لذلك كانت الوحدة تقتلهم أكثر من الألم ذاته، فكان لا بد من التعارف وكان لا بد أن أكون طرفا من تلك المعرفة .

قصة الساعة السادسة لطيفة ومضحكة جدا بالنسبة لي، وفي هذه الساعة كما أخبرتكم، يأتي موعد الفطور وقبل أن يأتي الطعام عليك أن تستمع لكلمات وعبارات مضحكة جدا: سيأتي فطور الدجاج أو وكما أذكر كن يمارسن الضحك والمشي في أن واحد ويتحدثن هكذا: سنشرب الحليب ولم نجد الطعام، أين هو ؟

أكله الفأر. يردن الضحك بأي طريقة أو أي وسيلة يتخذنها ذريعة لتغيير تلك الأجواء. كان الفطور فطورا صحيا جدا، شريحة من الخبز الأسمر، بيضة، قطعة جبن، شريحة خضار، أو شريحة برتقال. تكرار ذلك كان يسبب صداع لهن فلذلك أخترن الضحك، وتقبل الأمر. كنت أرى أشياء مضحكة منهن من يسكب الحليب لا ترغبه، الآخر قد يشرب الحليب لكنهن يملأن الكأس بمكعبات السكر. كان بعضهن يرفض تناول الفطور فتذهب إلى سريرها، منتظرة أحدهم، كأبنها أو إبنتها، زوج أو صديقة، تنتظر الفطور معهم. كنت أنا ووالدتي نأكل الفطور القادم إلينا وأحيانا ننتظر أختي لتجلب لنا أشياء أخرى، في بعض الأحيان كنت أذهب وأقوم بالشراء ليس شعورا بالجوع وإنما رغبة في الخروج فقد كنت أشعر بالتعب لبقائي في المكان ذاته. كنت في معظم أوقاتي، أطعم الحمام الذي كان يأتي تحت النافذة، لم أكن في السابق أعلم به لكن أم لفتاة كانت في غرفتنا، أخبرتني بذلك وكانت تحضر طعام الحمام وتخبرني هي بأن نطعمه. كان جميلا جدا. لقد كان ذلك أحد طقوسنا التي نمارسها هناك. كانت غرفة 552 كبيرة جدا وكانت هناك نافذتان، وكان في داخل الغرفة عدة سرائر ، ثلاجتان ، عدة خزائن خاصة .

كنت دائما أفضل أن أكون بمقربة من تلك الثلاجة، كان الجو حاراً جدا. كنت أضع بعض من العصائر والمياه العذبة هناك.كنا نكوّن كثيراً من الصداقات مع الممرضات، كان في الصباح يبدأ شفت الممرضات وفي المساء يبدأ الشفت الأخر. كانت كل ممرضة تحمل بيدها قلم ودفتر ويبدأ مشوار المعلومات والبيانات .

كان كل تركيزي منصب على وجوههن ، كانت تلك لعبتي الصباحية المفضلة، أقرا ملامحهن، وكنت أعلم من هي الحزينة، المرحة، المتعبة، أو المرهقة منهن والمتحمسة. كان كل شفت يحمل هذه الأنواع، وبعد ذلك يأتي دور أمي، يبدأن بالحديث مباشرة ، الإسم : ، العمر : المرض :، وهكذا .....

كن يتحدثن بالمصطلحات الطبية الأجنبية ولكنني كنت أستطيع فهم التشخيص، وأحيانا كانوا يعترفون بأخطاء قد صنعوها أو حالة قد أصيبت بشيء ما .كانت والدتي تفهم كل شيء لسعة معلوماتها ، إلا أن المرض جعلها غير راغبة حتى في إستماع الأصوات. وبعد ذلك كله يأتي دور الأحاديث الجانبية القصيرة ، كنا في الغرفة أربعة نساء، اذن ستعلم أن عدد المرضى ثلاثة. هنا يتغير العدد والنظام وألغي نفسي من الكينونة كلها ، في تلك الأوقات ينبغي أن أكون أكثر الأشخاص قوة في السمع والبصر وفي جميع الحواس . يجب أن أكون متعافية نفسيا قبل المعافاة الجسدية، كان ذلك أكثر أهمية بالنسبة لدي . ستتسائل لماذا ؟ كان كل ذلك من أجل أن أشاركهن أحاديثهن وأضحك معهن وأستمع لقصصهن . كنت أذهب إلى الجامعة ثم أعود للمشفى ،أنطلق من المشفى وأعود إلى الجامعة . كنت حينما أخرج أشعر بالسعادة والخوف في أن واحد . كنت أخاف أن يصيبها مكروه ما وأنا لست بقربها. كنت أعلم مدى شعورها بالحزن ، كانت تحزن لعدم مقدرتها على المشي كالسابق ، كانت تشعر بالخوف وتطمئن حينما أكون أنا أو أحد إخوتي أو والدي بالمقربة منها ، طبعا لم أكن بهذه العملية لوحدي ، بعد ذهابي كان يأتي أحد من العائلة، أو أحد من أصدقاء أمي ، كانت بعض الأيام تنتهي بسرعة ، وبعض الأيام الأخرى تشعر وكأنها الدهر بأكمله . كانت أختي تجلب لي الكتب التي أحتاجها فكنت أخبرها مسبقا وكان بالقرب من سرير أمي طاولة وكرسي، كنت أدرس هناك . كنت بالطبع أعود إلى المنزل من أجل القيام بأشياء أخرى . نعم بالفعل كان ذلك ما يحدث .

16- 4 - 2014

السادس عشر من شهر أبريل ، هذا الشهر الذي تقبع في مكامنه كل الأسرار ، شهر جميل ، ومخيف بذات الوقت . شهر الجمال وقصص الحب بين الأزهار وعبق الياسمين ولكن في هذا التاريخ نسيت فعلا أنه شهر أبريل ، قد يكون شهر الإنتصارات على النفس بحد ذاتها .

في اليوم التالي من الإدخال الثاني، عدنا إلى المراسم، المراسم التي تخص الطابق الخامس، وبالأخص غرفتنا التي قد أخبرتكم عنها. إستيقظت في الصباح، كالعادة عند الفجر، لكن ألم تقولي أنك لا تستطيعي النوم إلا بعد تلك الساعة؟ نعم ذلك صحيح ولكن ما حدث في ذلك اليوم كان غريباً. عدت من الجامعة وذهبت لأمي وفق ما أذكر، كانت الساعة السادسة مساء، جلست بقربها ، كان لدي هناك مقعد وكرسي أخر، ما كنت أفعله كالآتي، أجلس على المقعد وأضع أي كتاب، أرغب في البدء بدراسته، ثم أسند قدماي على الكرسي الأخر، وكنت قبل كل ذلك، أذهب إلى الكافتيريا الخاصة بالطابق الخامس وأشتري كوب من القهوة حتى أسترد ولو القليل من القوة حتى أستطيع القيام بواجباتي الأخرى.

كنت أحادث والدتي عما كان يحصل معي بالجامعة، كنت أطرح الكثير من الأسئلة التي تجول في خاطري لأمي، كنت أقول لها أنه كلما حاول شاب التكلم معي، كنت أنهي الحديث منذ البداية، لا أعلم يا أمي ولكن لماذا لا أعجب بأحد ولو مجرد إعجاب ؟ هل أشكو من خطب ما ؟ ما القصة ؟كانت علاقتنا أكثر من علاقة أم بوالدتها بل كانت علاقة صداقة ومحبة أيضا . كنت أعشقها جدا لأنني رأيت فيها كل شيء وهي نعمة من عند الله، أن تمتلك أماً بهذه الصفات : صديقة ، رفيقة ، معلمة ومتعلمة ، وفية ، مثقفة، مرشدة وأديبة . كان كل ذلك في إنسانة واحدة وأعظم نعمة كانت هي. كانت تقول لي وتجيبني على تلك الأسئلة، كانت تقول لي : أنصتي جيدا لي يا ساندرا ، نحن في هذا العالم لا نتسابق على كثرة الأصدقاء والأحبة، نحن نتسابق على أشخاص محددين يملكون مهارة البقاء معنا بكل معاني الصدق والوفاء، هذا ما نبحث عنه وهذا ما عليك البحث عنه. أدركت جيدا في تلك اللحظة، أنه علي الصبر والإنتظار حتى يجمعني القدر مع من يناسبني. كنت دائما هكذا، أشتري كوب قهوتي، ثم أذهب إلى أمي، نجلس سوية ونتحدث، بعد ذلك أبدأ بالدراسة

، كانت دائما تتمنى لي التوفيق ، كانت خائفة ومنزعجة في أن تكون السبب إذا ما تراجع تحصيلي الدراسي . لقد كنت أرغب في إنهاء دراستي في تلك الفترة ، حتى تتحسن ولو قليلا، لكنها كانت شديدة القسوة في ذلك الأمر. كانت تصرخ بوجهي، ولكن بعد ذلك كنت أرى الحزن باديا على وجهها. كانت ترى أنها السبب في تلك الأفكار التي كانت تلاحق مخيلتي وفكري. كان ذلك سببا في أن أعاهد نفسي على أن أكمل دراستي وأكمل حلمي، مهما كانت الظروف قاسية. ألم أقل لكم أنها قد كانت أماً رائعة . أحب التحدي منذ صغري، لذلك رغبت في أن أتحدى نفسي هذه المرة، وأن أحصل على علامة عالية بالرغم من كل هذه الظروف القاسية، إلا أنني عشقت التحدي في تلك اللحظات. أحيانا يا صديقي قد تستسلم قليلا، لكنك سترغب بالعودة كالذئب الذي يتسلق الجبل وحيدا لكن ذلك لن يكون للأبد. أردت أيضا أن أسعد قلبها فلطالما تمنيت لي الأفضل. سأخبركم قصة التخرج من الجامعة وكيف حصلت على تلك الشهادة، ولكن أعذروني الأن فيجب علينا العودة إلى ممرضات الطابق الخامس، وإلى صديقاتنا في تلك الغرفة. في ذلك اليوم دخلت إمرأة الغرفة، هذا يعني فرد جديد سيضاف إلى المجموعة، أصبحنافي الغرفة أربعة أشخاص. كان ذلك الرقم في غرفتنا يتغير بإستمرار، يتغير كل يوم، كل أسبوع وذلك وفق الحالة المرضية التي يعاني منها صاحبها، كانت تلك المرأة التي قد دخلت العضوية من جديد، كانت رائعة جدا، لكنها في البداية، فور لحظة دخولها، كانت تصرخ وبشدة في وجه الممرضة. كنت أتسائل يا ترى ما القصة ؟ كنت أراقب فقط. المراقبة، النظرات، التأمل، إعلم يا صديقي أنها تكشف الكثير، تكشف الكثير، الكثير .

بعد ذلك أصبحت الممرضة تركض خلفها، لن أنسى أبدا كم ضحكت حينها. علمت حينها يا صديقي حتى لو كنت في قعر المأساه فلن ينسى الله نصيبك من الضوء. كانت قصتها كالأتي: كانت تلك المرأة تدعى ليندا، كانت لا ترغب في أن تقوم الممرضة بسحب عينات الدم، كانت تقول ليندا حينها للمرضة: إبتعدي عني، سوف أموت بسببكم وليس بسبب الجلطة التي أعاني منها. ذهبت الممرضة لتجلب الطبيب، أثناء ذلك جاءت ليندا لتسلم علينا وتعرف بنفسها لنا، كان باديا عليها أنها شخص يحب الإختلاط والتعرف على الأخرين، نحن لم نبخل عليها بذلك، كانت تقول لي: شو إسمك يا حلوة ؟ قلت لها ساندرا. أصبحت تسألني أشئلة كثيرة،

كنت أجيبها لكن بإختصار، وعلمت مرض والدتي، كانت تخفف عنها وتخبرها أنها بخير، وهو أمر عادي ، بكل بساطة وفي أول لقاء حصل كل ذلك، قلت لك يا صديقي لا تستغرب ذلك فنحن في المشفى. في الأيام التالية بدأت تتكلم عن نفسها أكثر فأكثر. أذكر أنها قد أخبرتنا عن زوجها فقالت: ما صابتني الجلطة إلا بسببه. وكنا نستمع لها ونضحك فقد كانت تتكلم بحس فكاهي. كنا نسألها لماذا هو السبب؟ كانت تقول " الأخ مفكر حاله تاجر أخد مني مصاري مشان نستثمرهم بمشروع قام ضيع مصارينا، خسر كل شي بسرعة، ما أخدت منه وقت ما شاء الله عليه، أسد ولا يتشبه " ... كم كان اليوم الذي جاءت فيه ليندا إلينا يوما رائعاً، كم كانت تُنسينا ألامنا دون أن نشعر. في كل يوم، كانت هناك قصة تحدث بسبب جرعات الدم، عدا عن الركض المستمر في تلك الغرفة. أذكر أن ليندا قد قامت مرة بالجلوس أمام الباب وبدأت بالصراخ والبكاء على جرعة الدم تلك التي قد أخذت منها كانت تقول: والله "لتخلصوا دماتي"، خلص خلوني بالجلطة، "بدي أرجع ع بيتي". كان الطبيب يخبرها أنها لن تخرج من المشفى قبل حصولها على العلاج بأكمله. كنت أضحك كثيرا، فكانت تقول لي: "السا بتضحكي يا حلوه". كانت جميلة جدا بعينين خضراوتين. كانت تملك إبتسامة جميلة، كانت تجلس على سريرها أو تأتي إلينا لتخبرنا أحاديثها ومغامرتها الشيقة مع زوجها ومع الأطباء . أحببتها جدا، لإنها كانت تسعد والدتي. كانت والدتي فرحة جدا لوجودها معنا، كنا إذا شعرنا بالحزن، كانت تقف بجانبنا وتضحكنا، كانت تجعل اليوم يمر بسرعة، حتى أننا كنا لا نرغب بإستقبال أي أحد من الأصدقاء، كنا نرغب فقط بالبقاء معها. في إحدى الليالي، سمعنا صراخا ، كان ذلك في الساعة العاشرة، في غرفة العناية المشددة في الطابق نفسه، خرجت أنا وليندا لنرى ما القصة، وإذ بشاب صغير بالسن كان في تلك الغرفة بسبب حادث سيارة، كان ذلك الشاب قد خسر دما كثيرا، حتى توقف دماغه عن العمل. توفي ذلك الشاب في ذلك الوقت، كان جميع أهله و أصدقائه هناك. عدت أنا وليندا كان الحزن باديا على وجوهنا، شعرنا بالحزن على ذلك الشاب وبشدة، حزنا لكثرة الأشخاص الذين قد أصبحنا نفقدهم كل يوم من كثرة تلك الحوادث. جاءت الممرضة قدمت الدواء لأمي و لِليندا ، بالطبع كل منهما دواؤه مختلف. قالت لي أمي: لقد تعبت اليوم يا ساندرا، وأريد النوم. أطفئي الضوء الذي فوق رأسي وقمت بذلك.

نامت أمي وليندا، وبقيت أنا، أفكر بهذه الحياة، إلى أين ستوصلنا. وما المعارك الجديدة التي ستأخذنا إليها. لم أستطع النوم حينها، لم يكن لدي حل سوى قراءة رواية، كانت تلك الرواية لباولو كويلو، كانت عن الجبل الخامس، لم أرغب في إكمالها، أغلقت كل شيء حولي، لكن الشيء الوحيد الذي قد إستمر مفتوحا هو عيناي. أنا لا أستطيع النوم، كنت أمارس عملية التهذيب بيني وبين روحي، و دون تلك الجلسات لما أستطعت الصمود والوقوف لوحدي. كنت أشرب عصير البرتقال في تلك اللحظات عله يخفف القليل من صداع الرأس، الذي كان يتهالك على بقية أعضائي وهنا كان قد إنتهى ذلك اليوم، حينما أصبحت الساعة الرابعة أدركت ذلك حينها أن ذلك اليوم بالفعل قد إنتهى، كانت أمي تستيقظ في تلك الساعة، تجلس وتنظر من النافذة، كانت هي الأخرى تمارس تلك الجلسات أيضا وكنت أذهب أنا لأنام قليلا قبل الذهاب إلى الجامعة .

كنت حينما أستيقظ، أذهب إلى دورة المياه كي أبدل ملابسي وأضع بعض العطر، كنت أحاول المحافظة على أنوثتي كالعادة، حتى في أصعب الأوقات ترغب بعض النساء وإن لم يكن جميعهن بالشعور بأنوثتهن بالذات أمام أنفسهن. بعد ذلك ودعت والدتي وليندا، وذهبت نحو الكافتيريا في ذلك الطابق، كم كنت أشعر بحاجة ماسة للقليل من القهوة، ذلك حتى أتمكن من إستجماع قواي من أجل تلك المحاضرات الطويلة والكثيرة، كنت شديدة الإعجاب بالحركة النسوية، كانت أستاذتي من أصحاب تلك الحركة لقد أخبرتك عنها مسبقاً، كانت المحاضرة كالتالي: تدخل الأستاذة تتحدث والإبتسامة، أه من تلك الإبتسامة، كانت تكسر كل الأحزان والألام. كانت تملك أجمل قصة شعر، تخبرنا كيف أن اليوم جديد، نعم يوم جديد وتقفز وتقول: هيا بنا، أين النشاط، أين الحركة، أين الضحك. فعلا كانت رائعة، وكنت أعشق الصمت في تلك اللحظات، لأنني كنت أحب أن أحلل العبارات وأفهم كل تلك الإضافات، والإختلافات بيننا، في أفكارنا، ورؤيتنا. كنت من أشد المنصتين وكنت أستمع وبكل قوة لكل تلك الكلمات والجمل والعبارات حتى المبعثر منها، كانت تلك المحاضرة، تخص الأدب. كانت موضوع خاص في الأدب الإنجليزي، كانت تحوي الكثير من القصص، من الشرق والغرب، تتجلى الأحداث عن صور إضطهاد المرأة في كل مكان وزمان. كانت تستهويني تلك المحاضرة، كانت رائعة.

كنت أحب الكتابة جدا، لكن الوقت لم يكن يسعفني في تلك الأيام. الله وحده كان يعلم ما كان يحدث معي، لم أكن يوما ممن يبررون تقصيرهم أمام أنفسهم. سأخبركم المزيد عن تلك الأستاذه، كانت نموذجا للمرأة المناضلة، كانت تدعو الرجال أيضا في القاعة، وتشجعهم على الكفاح من أجل حرية المرأة العقلية، العلمية والفكرية. الغريب في الأمر أنني في أحد الأيام وفي القاعة تلك، كنت أشعر بهواجس عدة من قصة لصحفية من أصول أمريكية، سمعت تلك الصحافية عن قصة شاب سوري في الحي، ذلك الشاب يرغب بالهجرة. روت لنا تلك القصة، كيف إجتمعت به، وذهبت معه ومع أخته، كانت تلك الهجرة غير قانونية. كانت تتحدث عن أمها وأبيها، وكيف أنهما كانا من أشد الداعمين لها. شعرت حينها أن الأب يُكِنُّ إحتراما كبيرا لقدرات النساء وبالذات قدرة إبنته. لا يستطيع الرجل فعلا أن يستهين بإمرأة جبارة، قوية، خارقة ورائعة في ذات الوقت. على النساء جميعهن، أن يدركن أنهن عقول عظيمة، لا يرفع من شأن الإنسان سوى عقله وعمله، ذلك هو فعلا. كل شيء يتغير، أجسادنا تتغير، جمالنا يتغير، لا شيء يبقى على حاله سوى عقولنا، أفكارنا، مبادئنا. أن تشتري كتابا أفضل من أن تشتري بيتا، أنت قد تستطيع أن تهدم بيتي، لكنك لا تستطيع أن تهدم معرفتي. شراؤك كتابا قد يجعلك تبني عدة بيوت. كانت مقولة رائعة، كنت قد سمعتها في تلك الأيام. يتوجب على الإنسان أن يدرك أن كل عبارة قد يسمعها وقت حاجته، هي رسالة خالصة موجهة له، هي رسالة من الله. فالله يحبنا لذلك يتركنا نجوب في مضض الحياة، ولكنه لا ينسانا فهو يتابعنا ويتابع خطانا. حتى حينما نخطىء، يتركنا لبعض من الوقت، كي نفكر في ما حصل ولماذا وكيف وكل تلك الأسئلة، ثم نبدأ برحلة الإجابة. قد نحزن يا صديقي ونشعر بإكتئاب شديد وبعد ذلك ننهض من جديد، بأفكار جديدة وبطرق جديدة للتغيير ولتحسين أخطائنا، إذ ما كان يحسن تحسينها. هذا حقا ما قد يجعل قلبي و قلبك يشعر بالأمان، فنحن لا نحتاج لأحد كي يساعدنا على التواصل مع الله. قم أنت وتحدث معه، أخبره بكل شيء، هو ينصت لك وسيساعدك، لا تخف، لكن بالطريقة وبالوقت المناسب، الذي يراه هو مناسب لك وليس ما تراه أنت.

علينا العودة لما يحدث بعد تلك المحاضرة، بعد تلك المحاضرة أكون قد حصلت على جرعة كبيرة جدا من النشاط والحرية، العزيمة والطاقة، ثم أكمل محاضراتي الأخرى، بعد أن تصبح الساعة الرابعة ، أبتسم لنهاية اليوم، أحيانا كنت من شدة نعاسي، أنام فوق المقعد قبل حضور الأساتذة، كنت أخبر صديقتي بأن توقظني قبل مجيئه بسرعة، وبعد ذلك أذهب للمشفى، أقوم بشراء حاجياتي وأذهب لوالدتي .

أذهب نحو المصعد وأخبر أمي بقدومي ، حتى تدرك أختي ذلك قبل صولي وتذهب للمغادرة ، فهي أيضا كانت تكمل درأستها في الماجستير، كانت أياماً عصيبة على الجميع وحزينه لأننا كنا في تلك اللحظات ، نشعر بخوف شديد من فقد من نحبهم ، الذين كانوا لهم الفضل برقينا ، الذين كانوا كل شيء لدينا ، كانوا كل ما نملك . حينما دخلت شعرت بأن هناك شيء مفقود؟ أين ليندا وضحكاتها ؟؟ إعلم يا صديقي أن من كانوا هناك في تلك الغرفة، كانوا أصدقاءنا وجيراننا . أنت حبيس تلك الغرفة. عليك أيضا أن تحسن الإنتظار، قد يكون إنتظار طبيب، ممرضة، فحصا ، عملية، أو شيء أشد من ذلك بكثير .

ذهبت إلى والدتي، عانقتها، أخبرتني أن ليندا في غرفة الأشعة. بعد نصف ساعة كنت ما زلت أتحدث فيها مع والدتي، جاءت ليندا تخبرنا عن مأساتها، تريد الخروج من المشفى بأي طريقة، فقد أخبروها أنه يتوجب عليها القيام بعملية، لا أذكر بالتفصيل لماذا، كل ما أذكره أنها أصيبت بجلطة. كل ذلك ولكنها مازالت تشعر أنها بحصار قوي في تلك الغرفة.

كانت تقول لا شيء جميل هنا سواك يا ساندرا. كنت أشعر مدى جمال روحي في كلماتها النقية.

كنا نتحدث حتى جاءت الممرضة لتقدم الدواء. جاء ممرض من قسم التنفسية من أجل والدتي، كي يقدم لها التبخيرة المناسبة. كانوا يقدمونها لها نظراً لصعوبة التنفس لديها، فكان يتوجب عليهم فتح مجاري الجهاز التنفسي، كانت تعاني من سرطان حاد بالرئة، كان قاسيا عليها بالطبع. كنت أراقب الممرض كيف يجهز تلك التبخيرة، ثم يقدمها لأمي، فأصبحت أعلم أيضا كيف أقوم بتركيبها.

كنت أحيانا أقول لهم، أنا أعلم كيف أقوم بها، فقط أعطني إياها. كان ذلك رغبة مني في مساعدتهم، حتى لو كان ذلك وأجبهم، فعملهم متعب جدا. بالطبع علينا أن لا ننسى أننا بشر، وهم أيضا يتعبون ويشعرون بالإرهاق، فكنت أقوم بذلك من كل قلبي.

كان حينما يأتي وقت العشاء، يقوم نزلاء الغرفة في التخمين فيما قد يكون الطعام الذي سيأتي. كانت خبيرة التغذية تأتي أيضا لكن ليس دائما وتسألهن ما نوع الطعام أو الطبق الذي يرغبن بتناوله . كانت إجابتهن دائما مختلفة ومتنوعة . أدركت حينها أنهن يرغبن وبشدة برؤية أي شيء مختلف عما كان في اليوم السابق حتى لو كان التغيير في الطعام فقط . كان البقاء في تلك الغرفة ولأيام أو حتى أسابيع ، يجعلك ترغب بالهروب من الروتين حتى في الطعام .

بالنسبة لأمي فكان طعامها في معظم الأحيان صارما لا يتغير، كان ذلك يعود لمرضها . فالمريض يجب أن يتبع حمية غذائية ، أن يبتعد عن السكريات من أجل أن لا يرتفع الأنسولين لديهم. كان الطبيب يأتي أحيانا ليتأكد من أن الدواء والفحوصات المطلوبة قد تم عملها ، وإذا ما كان هناك ألم ما.

كنا كثيرا ما نقوم بتلك الصور، صور الأشعة تلك. كنا نقوم بها كثيرا . كان ذلك من أجل التأكد من مستوى السوائل، وإذ ما كانت هي السبب في إعاقة عملية التنفس، وكانت في معظم الأحيان هي السبب. حتى أن تلك السوائل كانت تؤثر على كيفية تناول الطعام بشكل جيد، أحيانا يكون البلع صعبا .

سأخبركم بالتفصيل عن هذا الأمر لكن رويدا رويدا .....

التشخيص الرحيم

لا تخف أبدا، لا تخافي أبدا ... ما القصة هنا ؟ سأخبركم ما القصة. سأقولها لكم . في هذا اليوم كان لا بد من إعادة تشخيص والدتي للتأكد من مرضها مرة أخرى. جميعا يعلم ما هو مرض والدتي بالأخص بعد مضينا في جميع طرق الكشف و العلاج التي تخص المرض . كانت الإجابة ذاتها: سرطان في الرئة، بالإضافة لإنتشاره في العظام، الحالة المرضية تعتبر من أصعب الحالات في الدرجة الرابعة .

ولقد أخبرتكم قصص العلاج، العلاج في هذه المرحلة صعب وصاحب المرض أيامه معدودة حتى جاء طبيب رائع جدا يدعى هشام. كان هذا الطبيب إنسانيا بمعنى الكلمة، هو يعلم أن علاجها وشفائها صعب وشبه مستحيل، إلا أنه أستطاع أن يخفف المرض عنها قليلا فتمكنت من العيش عاما كاملا. كان هشام ممن يؤمنون بالمعجزات.

جاء الطبيب هشام في ذاك اليوم وقال لها: سأكون الطبيب المسؤول على علاجك، منذ ذلك اللقاء شعرت أننا في أيدي أمينة. أخبر هشام والدتي أنها بخير وفي وضع جيد، بالعلم أنها ليست كذلك. هي تعلم جيدا أنها ليست كذلك لأنها هي التي تشعر بألمها، لكن الطبيب كان يريد أن يشجعها من أجل أن تتقبل العلاج .

أنا لا أريد أن أقول لكم يا أصدقائي، أنه يتوجب على الأطباء الكذب على مرضاهم. أنا لا أقصد ذلك تماما. ما أقصده هو أنه حينما يكون الطبيب على علم تام أن مريضه يعلم ما هو مصابه، لا بأس إذا قام الطبيب بإستئصال المرض، إذا كان الجسد صعبا فالأولى به هو الروح. هذا ما كان يميز الطبيب هشام فحينما كان يرى مريضا، يقدم له علاج روحيا، أنت قوي وقد تشفى، نستطيع أن نخفف ألمك يا صديقي. والموت صديقنا صديق الجميع. كانت الإبتسامة لا تفارقه أبدا مع أن عيناه كانتا حزينتين، تستطيع الشعور بحزن عيناه .

كان في أغلب الأوقات يخبرها بمدى أهمية خضوعها لصور الأشعة من أجل معرفة مقدار السوائل المحيطة بالرئة. كانت تلك السوائل تحدث بسبب الرئه ، كونها لا تستطيع العمل كسابقتها.

كان يخبرها بأهمية تناول الدواء الذي تاخذه، أقراص وأدوية تؤخذ قبل الطعام ومنها بعده عدا عن التبخيرة التي كانت تأخذها بين الفينة والأخرى، كان قسم التنفسية يحددونها لها. كان في البداية يمنع عنها أخذ جرعات الكيماوي وذلك من أجل أمر هام وهو أنها في المرحلة الرابعة، درجة متقدمة جدا وضعها سيء، فلم تعد قادرة على الحراك ، ولم تعد قادرة على حمل أبسط الأشياء. كان ذلك بمثابة عذاب لها، كان قاسيا جدا، كانت تخبرني أنها تشعر بالنيران داخل جسدها تشتعل. لكن بدعم الطبيب والعائلة إستطاعت، أن تستعيد معنوياتها وشجاعتها، لدرجة أنني قد أصبحتُ بعد ذلك أتسائل، كيف إستطاعت أن تلم تلك الأشلاء المبعثرة وتنهض مجددا بكل قوة وعفوية؟ كيف أستطاعت العودة بسرعة ؟ فعلمت حينها أن السقوط لا يليق بأحد. مر الوقت وتحسنت أمي فقرر الطبيب إعطاء والدتي جرعات الكيماوي، كانت أحيانا على هيئة أقراص. أذكر أنها لم تفيد والدتي بشيء سوى بسقوط شعرها، بالطبع بعد ذلك يعاود الشعر بالظهور حينما تتوقف عن أخذ تلك الجرعات. أذكر أن الطبيب قرر بموافقة والدتي الإستعاضة عن العلاج الكيماوي بالهرموني. كانت قدرتها على التنفس سيئة جدا مما كان يجعلها غير قادرة حتى على النوم.

قرر الطبيب أن نقوم بإجراء صور أشعة تخص الرئة للتأكد من مقدار السوائل المتراكمة، قرر بعد رؤيته للسوائل أنه يتوجب إجراء عملية تخص سحب السوائل، حتى يتمكن من تخفيف تلك الكمية. كان ذلك يصعب علي وبشدة ولكنه أمر لا بد منه وكانت رغبتي شديدة بأن تتحسن .

كنت أنا ووالدتي دائما وفي كل إدخال نضحك ونكوّن صداقات مع الممرضات، كنا حينما نتجه للمصعد نسلم عليهن ونمضي، كانت هناك ممرضة أسمها كاميليا حينما ترانا تقول: إلى أين ؟ هل ترغبن بالهروب أم ستذهبن إلى المطعم من دوني. كنا نضحك وبشدة، كان برفقتنا إما ممرضة أو ممرض مرافق. كانت أمي في المصعد تقول عبارات مضحكة، كأن تقول: متى سننتهي من رحلة الشتاء والصيف، نصعد ونعاود النزول، ننزل ونعاود الصعود . كنا نضحك جداً ثم نذهب إلى غرفة الأشعة. كنت أساعد والدتي من أجل الوقوف، تبديل ملابسها

ومن ثم أذهب خلف الجدران كي لا تصل تلك الأشعة نحوي، ومن بعد أخذ الصورة نعود إلى ذلك الطابق. نعم الطابق الخامس. وكما أسلفت بالذكر بأن والدتي كان يتوجب عليها القيام بتلك العملية. قمنا بإجراء تلك الصورة، بعد ذلك جاء الطبيب وبدأ بصنع أثقاب في الظهر بإتجاه الرئة، بعد تلك العملية كانت متعبة جدا وحزينة . حينما عدنا إلى الطابق قام الأطباء والممرضات بمساعدتها حتى تتمكن من الجلوس إلا أنها كانت حزينة جدا . لا تقل لي يا صديقي أنك قد قلت قبل قليل كم كانت شجاعة ، نعم يا صديقي لقد أحبت ألمها لكن بعد إجراء تلك العملية كانت منهكة تماما ، الحزن شي لا بد منه لكن إستمراره هو الضعف ، بقاءه يعني الخسارة ، خسارة كل شيء حتى نفسك . يجب أن تكون العزيمة قوية حتى لو كانت عيونك تذرف الف دمعة .

نحن بشر والبشر يضعفون ولذلك لا تخف ، لا تيأس . عليك دائما الوقوف والمحاولة من جديد ، عليك الوقوف مجددا على قدميك مهما حصل وبالرغم مما سيحصل.

سأعود للحديث عما حصل بعد إجراء والدتي للعملية . كانت ليندا في تلك الفترة قد أخذت إذنا للخروج من المشفى لمدة 12 ساعة . لماذا خرجت ؟ أنا لم أعلم السبب إلا بعد عودتها . أخبرتني أنها لم تعد تطيق البقاء في المشفى وفي تلك الغرفة أكثر من ذلك. أخبرتني أن بقاءها طوال تلك الفترة هناك تشعرها بالعجز ، العجز عن ممارسة ما قد إعتادت على فعله . حينها أيقنت حزن والدتي الذي لم أشعر بدقته قبل ذلك . كانت تلك الأحاديث بالطبع بعد عودتها وإنتهاء المدة التي قد قدموها لها . قلت لها ماذا صنعتي؟ قالت لي عدت إلى منزلي ، صنعت معكرونة بالبشاميل وكاري الدجاج ، زارتني صديقتي . تركتها تتحدث ، كانت متحمسة جدا ، قلت لها أنني أشعر بعطش شديد ، سأذهب إلى الثلاجة لأشرب الماء . قالت هي وأنا أيضا أرغب بترتيب حاجياتي في الخزانة . أذكر سقوط علبة كبيرة بداخلها حبات الشوكولا المغطاة بإكياس جميلة وملونة . سمعت صوت ليندا تصرخ وتقول: " ساندرا هاي الشوكولاتة إلي ، شو عملتي يا حلوة " ؟ قلت لها : أنا أسفة وأعدت كل شيء لمكانه ، ضحكت أمي وليندا كثيرا. قالت ليندا: " بنتك صدقت ، شكلها مفكرة حالها بشركة ، إرمي كل شي ب ثلاجة هو فارقة،

كل شي على حسابك" ضحكت من تعابير وجهها وحركاتها أكثر من أي شيء أخر . تحدثنا بعد ذلك أنا وامي وليندا قبل النوم. في ذلك اليوم بعد إنتهاء ذلك الحديث ، ذهبت إلى النوم على غير عادتي ، لكنني قبل ذلك قرأت رواية ل باولو كويلو، إعترافات مسافر حاج. أذكر أنني قرأت بعض الصفحات ثم نمت على الفور .

عليك أن تبتسم هنا

في هذا اليوم وفي تلك الساعة ، الساعة السادسة صباحا . أخبرتني والدتي بأن علي الإنتظار والتأخر قليلا عن الجامعة ، عله بعد ذلك يحدث شيئاً ما .

جاء الطبيب وأخبرنا أنه على أمي الذهاب إلى غرفة الأشعة للتأكد من مستوى السوائل في الرئة ، وفقا لذلك يقدم قرارا بالبقاء في المشفى أو يقدم لنا إذنا بالخروج . وبالفعل ذهبت والدتي لأخذ صورة أشعة نهائية.

بعد كل ذلك ذهبت مع والدتي إلى الغرفة وكانت نتائج الفحوصات ستخرج بعد ساعتين . قلت لوالدتي سأبقى بجانبك حتى يأتينا الطبيب بخبر يقين . جاء الطبيب بعد مرور ذلك الوقت ، ذلك الوقت الذي كنت أنا ووالدتي نتمنى مروره بسرعة . أخبرنا الطبيب أن مستوى السوائل قد إنخفض ، وأنه يمكننا الخروج . كان ذلك الخبر خبرا مفرحا جدا بالنسبة لنا، كنت أنا وأمي نرغب فعلا بالذهاب من المشفى والخروج . قد تقول لي يا صديقي : لما هذه الفرحة الشديدة ؟ في الحقيقة نحن نود العودة إلى المنزل لأنك أيتها القارئة وأيها القارىء حتى أنتي أيتها الكاتبة لا تعلمين وهم لا يعلمون معنى العزلة ، كأنك سجين لكن الفرق هو قدرتك على الهرب قليلا من ذلك الواقع . هذا الشعور لا بد منه ، أنت لا تعلم ما إذا سيكون هناك مرافق لك بالغرفة ، قد تكون أنت هناك وحدك في تلك الغرفة ترأقب دقات النسيان على ذلك الحائط . لا ننسى مشاعر الخوف والترقب التي تبقى ملازمة للمريض . لا يعلم المريض ما قد سيكون مرضه ، وإذا علم فهو لا يعلم ما قد سيكون حاله . المريض يبقى على ترقب لمعرفة نتائج الفحوصات تلك . لا يعلم ماذا يريد الطبيب أن يصنع معه ، ما هو الدواء الذي سيقدم له. يعيش في غربة وخوف وحقيقة في أن واحد . حينما يأتي المريض خبرا أنه يستطيع الخروج، هو يشعر في تلك اللحظات أن صحته جيدة ولا خوف عليه وأنه قادر على العودة لممارسة طقوسه السابقة حتى لو كانت بسيطة لا تذكر. لا ننسى أنه في تلك اللحظات يستشعر نعمةالعودة ورؤية من يحب كمن كان محاربا في صفوف المعركة. بالنسبة لي شعرت بالسعادة الغامرة وسأعترف لك أن أول شيء قد خطر بجوارحي هو النوم. النوم هو أجمل شيء بالإضافة للقهوة، فكلاهما لا يتغير عليك كالبقية. نحن لا نشعر بهذه النعم الصغيرة إلا حينما نفقدها وبصورة مؤقتة.

نعود لما كنا نتحدث عنه، أعلم يا صديقي أنني قد أفقد الموضوع وأروي لك شيئاً أخر إلا أنني يا صديقي أعود وأخبرك القصة كاملة لأنني أحبك مهما كانت سماتك وتفاصيلك. بعد إعلام الطبيب المسؤول أنه يمكننا الخروج تبدأ الإجراءات. يأتي طبيب أخر يقوم على تقييم المريض بصورة نهائية. ثم تبدأ رحلتنا مع الممرضات تأتي ممرضة وتذهب أخرى. تلك الممرضة تأتي لتفرغ ما قد يكون في تلك الأكياس المربوطة بأجساد هؤلاء المرضى، بعض المرضى يكون عاجزاً حتى عن التحرك في سريره. تأتي ممرضة لإزالة تلك القطع التي على يد المريض ، قطع تشبه الأساور مركبة على معصم المريض .

في تلك الأثناء أكون أنا قد وضبت حاجياتي،أتصل بأخي أو والدي من أجل أن يأتي ويأخذنا من المشفى . طبعا عليكم أن لا تنسوا صديقتنا ليندا والتي كانت في ذلك اليوم عائدة من منزلها بعد أخذها لإذن المغادرة ، كانت حزينة قليلا ولكن حينما أعلمها طبيبها المختص بأنها لن تبقى سوى يومان ، فرحت وأبتسمت وجاءت راكضة نحونا تسلم علينا وتودعنا . لم أذهب في ذلك اليوم إلى الجامعة . كان بمثابة عيد قومي بالنسبة لي . عدا عن أن الإجراءات تأخذ وقتها بالإضافة إلى الدواء الذي يجب أخذه قبل الخروج . هناك عدة أوراق يتحتم علي دائما توقيعها ودفع المستحقات التي تخص المشفى. فرحتي للعودة إلى المنزل وأنني سأخلد إلى النوم كانت لا توصف .

ذهبت أنا وأمي إلى المنزل بعد أن أنهينا كل هذه الإجراءات . كانت أمي سعيدة جدا . شعرت بالنعاس في طريق العودة ، لكنني تذكرت أنني قد نسيت روايتي التي كنت أقرأها قبل النوم ، كنت غضبانة لأنني نسيتها فلم يتبقى سوى عدة صفحات ، لكنني تذكرت أنه لا أحد سيأخذها وذهبت في اليوم التالي إلى المشفى وأخذت روايتي .

عدنا إلى المنزل ، دخلنا ، تنفسنا هواء المنزل ، تنفسنا عبقا من الحرية . بعد جلوسنا تناولت أمي أدويتها بعد الغداء ونامت. أما أنا فقد نمت فور دخولي دون أن أبدل ملابسي. إستيقظت في اليوم التالي، نظرت إلى ساعة الحائط، أدركت أنه يتوجب علي البقاء كي أتمكن من دراسة ما قد تراكم علي. كنت بين الفينة والأخرى أجلس مع والدتي نقرأ بعضا من أبيات الشعر، كنا نختار الجلوس في أكثر غرفة مشعة، هادئة. كنا نشرب الشاي أو نحتسي كوبا من القهوة. ستبقى القهوة أكثر عشقا قد عرفته . كنت أقدم لأمي القليل من القهوة في فنجان صغير، فأنا أتبع تعليمات الطبيب حتى المختصين في علاج الأعشاب. القهوة تحوي على الكافيين، بالإضافة إلى وجود أعشاب مفيدة في القهوة لكن معظم المختصين كانوا يتفقون أنه يتوجب على المرضى أخذ القليل منها. كنا في تلك الفترات نتسابق أنا ووالدتي في الحديث عن أشياء قد حصلت معنا أو نحلل شخصيات وقصص من كانوا معنا . كنا نقول الشعر أو عبارات وأمثال من باب التعلم أو الضحك حتى السخرية. كانت تلقي حتى كلاما ومقولات تاريخية أو حتى قد يكون كلاما مأثورا. أذكر مرة أنها أخبرت الطبيب المختص بأخذ العينات:لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربةً بسيفٍ أو رميةً بسهمٍ أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء. أذكر كم ضحكنا في تلك اللحظة.

كنت أفكر في السبب الذي قد جعلها تقول مقولة خالد بن الوليد. هل كان وخز الإبر دافعا لذلك، هل كانت تلك الإبر تتساقط عليها كتلك الرماح والسيوف. هل الألم متشابه جدا ؟

سأكون صريحة جدا معك يا صديقي، فبعد جلوسي مع والدتي ومع بقية المرضى، أيقنت جدا أن ألمهم شديد. ألم يجعلهم يشعرون بأنهم في عالم غير عالمنا. يجعلهم يشعرون أن تلك الإبرة، تلك الوخزة مكملة للألم الذي يشعرون به، حتى أنه مع كثرة تلك الوخزات والعينات يصبح لون الجلد أزرق ثم يتغير للوردي وهكذا. فعلا هذا هو حقا ما يعانيه مريض السرطان، يعاني من شدة الألم والوحدة إلا أنه قوي جدا ، لذلك يبتسم لي ولك مهما حصل .

تلك الأرواح كائنة خلف الجدران

حينما تجلس بين أركان المنزل، أو حتى في إحدى الغرف التي تشعرك بالدفء، عليك حتما أن تشعر وكأنك في الجنة. قد يكون المكان الذي يشعرك وكأنك في الجنة ليس بمنزل ولا بغرفة ، ربما شارع ما أو حتى مقعد في مكان ما، أو ربما يكون مقهى في إحدى المناطق القديمة يشعرك بالدفئ بعيدا عن الصخب والضجيج وكل ما قد يؤلمك ويزعجك .

حينما كنت أجلس أنا ووالدتي في المنزل وحدنا ، كنا نقرر دائما في جلساتنا أن نتكلم ونتحدث عن أشياء كثيرة كما أخبرتك سابقا حتى أننا كنا نقوم بقراءة كتب العلاج الخاصة بمرض السرطان. معظم تلك الكتب كانت تتحدث عن المرض وماهيته وكيفية علاجه الطبي منه والشعبي. أخبرت والدتي ما الضرر إذ ما إتخذنا جميع السبل وطرق العلاج التي تقدم بالمشفى بالإضافة إلى النظام الغذائي الذي يجب على مريض السرطان أن يتبعه كون المريض من كثرة تناوله للأدوية، يشعر بطعم مر في حلقه وتضعف حاسة التذوق لديه حيث أنه يتوجب عليه تناول الخضار وشرب الكثير من الماء، مضغ أوراق من النعناع قبل تناوله للطعام، حيث أن أوراق النعناع لها القدرة على أن تخفف من حدة ذلك الطعم المر في حلقه .

حينما كنت أقدم الطعام لوالدتي ، كنت أحاول قدر الإمكان أن أقدمه لها بالطريقة الصحيحة ، محاولة قدر الإمكان أن يكون لذيذا دائما . كانت تقول أحيانا أنها لا تشعر بطعم أي شيء وتشعر بمرار شديد في حلقها .

مع كل ذلك وكل ما يعتري مريض السرطان ، عليك أن تعلم يا صديقي أن كل مريض هو يمتلك روحاً جميلة، هو كائن رائع، لكن الألم يخطف بسمته منه في كثير من الأحيان ، لذلك هو بحاجة لمن يعينه على تلك البسمة . هؤلاء المرضى مميزون جدا ، فهم محاربون بحق ، محاربون بكل المعاني المتوافرة في أي قاموس من قواميس اللغة ، لذلك أي أحد يقترب منهم ، يتعامل معهم ، مختص كان أم عالم ، صديق كان أو أب ، جميعهم يعلمون وسيعلمون مدى قوتك وألمك المجتمعان في نفس البؤرة تلك ، أستطيع أن أراها وأنت أيضا تستطيع ذلك .

وفي تلك الأيام التي كنا فيها في المنزل ، كنت أذهب إلى الجامعة وأعود إلى البيت . كنت أمارس حياتي الطبيعية مثلما كانت ، ولكن هناك بعض الفروقات والإختلافات المتواجدة وأنت تعلم لماذا يا صديقي . كان منزلنا ممتلئ بأناس أعرفهم والكثير منهم لا أعرفه . كانوا أصدقاء ومعارف لوالدتي ووالدي . لا أنكر لك أنه قد كان لهم دور عظيم في تغيير الأجواء وتلطيفها ، والمساهمة الفاعلة في تحسين نفسية أمي . كانوا يخبرونها الكثير من الأشياء ، ألهام في الأمر أنها أحاديث بعيدة عن المرض ، وبعيدة عن أي شيء أخر. لم يكونوا على معرفة أن التغيير الذي يساهمون به كبير وعن مدى الكآبة والحزن الذي كانوا ينقحوه ومن ثم يلقونه بعيدا عنا ، بعيدا عن أعيننا .

كان لي أخ صغير وكان معتاداً على الدراسة مع والدتي، ولكن بسبب المرض لم يعد أخي يجلس معها كسابق عهده بسبب مرضها وذهابها للمشفى . حينما كنا نعود إلى المنزل ، كانت والدتي تمارس تلك العادة مجددا مع أخي . لا ننسى يا صديقي عدم القدرة على رفع صوتها ومع ذلك كانت تحارب هذا الأمر من أجل ذلك . من أجل رغبتها الشديدة في ممارسة تلك العادة . لكنهم يا صديقي أقوياء جدا ، رغبة العودة دائما واردة لديهم . العودة لكل شيء. هم يعلمون أنهم قد يفارقون الحياة ، يعترفون بذلك أمامك ولكننا نحن يا صديقي نجهل ذلك في كثير من الأحيان . لماذا نخاف من الموت وهو أشد الحقائق وجودا ؟ لماذا ذلك الذعر البادي على الوجوه ؟ الحزن الحقيقي هو سبب لذلك الذعر والخوف حينما نكون مقصرين إتجاه أنفسنا. حينها ندخل إلى ذلك العالم بأنفسنا . ندخل إلى علبة صغيره ولا نرغب بالخروج منها . نحن لسنا كذلك يا صديقي . أعلم أننا نحن مجرد بشر ، قد تعترينا تلك الأيام التي نخاف ونحزن بسببها ، ولكنه يتوجب علينا عند السقوط معاودة النهوض .

كم من صحيح يسقط على الأرض ، لكنه يبقى متكئا على تلك الحافة ، رافضا الوقوف والنهوض ، كي لا يتكرر ذلك السقوط . الخوف من تكرار ذلك السقوط ، جعله خائفا من تكرار المحاولة. هؤلاء يا صديقي هم أسرى أنفسهم ، ونحن أسرى لذلك التحدي الذي وضعنا فيه . ستنتصر لكن حينما تسقط مرار وتكرارا .

القدر كلمة جميلة جدا، تشعرك بأنه عليك الإطمئنان وعدم الخوف من مجريات الزمن، إلا أن القدر قد عقد شرطه، على أن تحاول دائما وأبدا. كن على يقين بأن هؤلاء المرضى، هم أقوى المحاربين الذين قد رأيتهم.

كانوا أقوياء، مبهجين، حتى حينما يتألمون بسبب تلك الجرعات، يبقون على عهدهم يا صديقي. يستمرون بالمحاولة . هم فعلا رائعون جدا .

لا أحد يمتلك القوة والقدرة ، على أن يخبرك ستموت الأن أو بعد ساعة أو بعد يوم أو حتى بعد عام . لا أحد يعلم أبدا . هو يمتلك تلك المعرفة لذلك هو قوي إلى أبعد التصورات دون أن تدري .

عليك أن تعلم أنهم هناك ، موجودون ، أقوياء وبحاجة إلى أن تقدم لهم بعض من إنسانيتك .

هم أرواح عظيمة ، جميلة ، كائنة بين تلك الجدران ......

الإدخال الثالث: العودة مع حقيبة الطعام

كان مقررا علينا أن نعود بعد شهر تام . وبعد مضي ذلك الشهر عدنا فعلا . قبل خروجنا من المنزل كنت قد رتبت جميع الحاجيات التي يتوجب علينا أن نأخذها معنا . وضعت الملابس الخاصة بي وبأمي قبل خروجنا وملأت حقيبة كاملة من الطعام . نعم ملأتها وكانت أمي تقول لي لماذا كل هذا ؟

كنت أقول لأننا لا نعلم ما قد يحدث معنا ، وأنا لا أحب المأكولات الجاهزة وتلك الأشياء ، فحضرت الأشياء وخرجنا أنا و أمي ووالدي وأخي إلى المشفى . ذهبنا إلى الطبيب هشام وسأخبركم بأمر مضحك لم أستطع الحراك أبدا من كثرة الأكياس والحقائب التي معنا بالأخص من حقيبة الطعام التي كنت أخرج منها كل ساعة شيء لأتناوله . لا أعلم حتى أمي قالت لي : هل نحن بمجاعة بالصومال ومع ذلك ضحكت ولم أرد بشيء ثم جاء دورنا، دخلنا إلى الطبيب هشام وقد رحب بنا ، وكان كالعادة رائعا في إبتسامته وفي نكاته . يقيم الوضع ثم يخبر المريض بأن عليه أن يقوم بالكثير من الفحوصات وأخذ العينات وإجراء صور الأشعة وبعد الإنتهاء. ينتظر المريض ساعة إلى ساعتين وتكون النتائج قد وصلت إلى الطبيب ، في ذلك اليوم أخبرنا أن أمور والدتي جيدة ولكن عليهم أن يعاودوا القيام بالخزعة بالإضافة إلى تقديم العلاج الكيماوي لوالدتي .

كان الطبيب هشام يرغب ويقوم دائما بإضافة جرعات الأمل إلى والدتي ويخبرها أنها تستطيع الشفاء وما عليها سوى المحاولة والصبر . طبعا دخلنا إلى نفس الطابق ونفس الغرفة، وحينما دخلنا وجدنا بأنه سيكون هناك رفقة كثر في هذه المرة. أدخلت والدتي وبدلت ملابسها وأجلستها على سريرها وجاءت الممرضة تأخذ البيانات التي يجب عليها أن توضع في الملف ، تذهب وتضع الملف بعد ذلك عند سرير أمي. وقبل أن أخبركم عن رفقتنا في هذه الغرفة سأخبركم قليلا عن هذا المرض وكيف كان الجميع يتحدث عنه .

لا تخف حينما تسمعه بل إبتسم لأن صحتك جيدة وأنك بعافية وأنه عليك دائما أن تذكرهم في دعائك وفي عملك.

جوري وقهوة الصباح

زميلتنا في الغرفة رقم 552 فتاة شابة بعمر العشرين، تدعى جوري . كانت جوري ووالدتها في الغرفة ذاتها التي كنا نحن فيها. ما زلت أذكر كيف أصبحنا سوية وأعز أصدقاء. كنت عائدة مع والدتي من قسم التمريض، كنا نتحادث هناك مع صديقة عزيزة . حينما دخلت مع والدتي إلى غرفتنا ، رأيت أما لم تكن كبيرة في السن ، جميلة، هادئة إلا أن معالم الحزن كانت بادية عليها ، كانت جالسة بالقرب من السرير المقابل لنا . علمت أنها أم لمن هو في ذاك السرير ، فقد كانت خائفة ، حزينة ، قلقة وفي أن واحد تدعو الرب أن يكون مع صغيرتها. ذهبت أنا وساعدت أمي على الجلوس جيدا وطلبت مني أن أعطيها كتابها الذي أحضره لها والدي . بعد ذلك جاءتني رغبة في الخروج من الغرفة وفي أثناء خروجي نادت الأم وقالت: يا جميلة هلى تحضرين لي كأس من الماء البارد . قلت لها بالطبع . ذهبت وأحضرت لها الكأس .

في الحقيقة يا صديقي كانت تشرب الماء وكأنها لم تشرب منذ الصباح، فقلت لها : حينما خرجت أنا ووالدتي لم يكن هنا أحد ، وحينما أتينا كنت أنتِ هنا ولكن أين مريضك؟ قالت لي أنهم قد كانوا في الطابق الثالث ، وأن أبنتها في غرفة العمليات منذ الصباح ، وحتى الأن وكما ترين فهي لم تخرج بعد . قام الأطباء بنقلنا إلى هذا الطابق من أجل جوري . علمت من الأم إسم صغيرتها قد كان جوري، لا تستغرب بقولي صغيرتها ، مع أن الفتاة بالعشرين ، لكن يا صديقي جميعنا صغار أمام أمهاتنا .

كانت الساعة التاسعة مساءا حينما أحضروا جوري إلى الغرفة، أذكر أنها قد كانت محاطة بالكثير من الأطباء والممرضين ، قاموا بوضع جوري على السرير ، وبدأوا بالحديث مع الأم ويخبرونها أن أبنتها في وضع جيد تماما. سأعترف لك أنني كنت شديدة الإنتباه على أم جوري، رأيت الأم وخوفها وتذكرت أشياء من طفولتي وكيف كانت والدتي بحالة أم جوري ذاتها . علمت حينها كم نحن محظوظون بأمهاتنا . علمت مدى جمالهن ورقتهن ، حيث أنه في الحقيقة لا مدى لذلك .

إستيقظت في الصباح ، جهزت نفسي ، تناولت الفطور مع والدتي ودعتها وذهبت إلى الجامعة . كان يوما عاديا في الجامعة ، كان الروتين يقتحم ذلك اليوم إلى حين عودتي . أنهيت دروسي وعدت إلى المشفى ، منزلي الثاني . دخلت الغرفة وكانت أمي قلقة ، جلست بجوارها وأخبرتني أن الطبيب لم يقدم لها أي دواء ، قامت بعمل صورة أشعة أخرى لا شيء أكثر . أخبرتها أنه لا يوجد أي داع للقلق. وأننا سنعلم غدا من الطبيب ماهية السبب . في تلك الأثناء كانت جوري على سريرها وكانت تستمع لحديثي مع والدتي ، كانت ترغب أيضا بتهدئة والدتي وأنه لا يوجد أي سبب للخوف . كانت والدتها ليست بجوارها .

ذهبت إلى جوري ، أخبرتها القليل عن نفسي وعن أمي . بدأت هي أيضا بالحديث عن نفسها وأنها كانت في غرفة العمليات من أجل أن تعالج الحروق التي قد أصيبت بها ، بسبب إنشغالها مع صديقاتها في المنزل ، ومع تهور بعض الفتيات حدث حريق في مطبخ المنزل ، مما أدى إلى إصابتها وتعرضها لحروق شديدة ، إلا أنني لم أرى أي من تلك الحروق التي تتحدث عنها . أخبرتني أن الحروق التي قد أصابتها كانت في منطقة الصدر والمعدة . والهدف من تلك العمليات هو ترميم ذلك الجلد المحروق . كانت تلك العمليات شديدة الخطورة فهي بحاجة إلى إنتباه وتركيز شديد جدا ولا ننسى الدقة .

أكملت جوري الحديث عن نفسها وأنها في العشرين من عمرها ، وكيف أنها قد توقفت عن الدراسة من أجل أن تخضع للعلاج ، وأنها كانت مخطوبة . كانت الكلمات تتبعثر من فمها والحزن بادٍ في عينيها . صيغة الماضي يا صديقي تخبر كل شيء أيضا. لم أرغب بأن تكمل حديثها فقد كانت متعبة وحزينة، أخبرتها أنني أرغب بالذهاب إلى الكافتيريا كي أقوم بشراء كوبين من القهوة . قالت لي وأنا أحبها أيضا، فأخبرتها أنني سأجلب لها معي. لم نكن بحاجة إلى تلك المقدمات الطويلة كي نصنع صداقتنا فنحن في المشفى، كسجناء، لا يوجد لديك خيارات كثيرة ولكننا كنا نحظى بقدر من الحرية في بعض الأوقات ولم نكن مجرمين بالكامل .

ذهبت إلى الكافتيريا وأحضرت القهوة . كانت جوري كما تركتها جالسة تمسك الهاتف بيدها. قدمت لها قهوتها، أخبرتني كم هي ممتنة لأنني أحضرت لها القهوة ، قلت لها دعك من هذا. بدأنا الحديث بأشياء كثيرة منها ما يخص الفتيات وبعضها يختص بالحياة . إبتعدنا عن الحديث عن كل شيء قد يسبب الحزن والألم لنا.

بعد حين وإذ بوالدة جوري قادمة، رحبنا بها، كانت سعيدة ومرحة وأخبرتنا من فور جلوسها أنها قد أحضرت لنا طعاما لذيذا. شعرت بفرح شديد أنا وجوري حينما علمنا أنها هي من طهته . نحن لا نكترث للطعم بقدر أن لا يكون طعاما من المشفى أو حتى من المطاعم ، فكيف به حينما يكون لذيذا كما صنعته لنا أم جوري . بدأت تقول : هيا ساندرا تفضلي وتناولي الطعام مع جوري . أنا أعلم جيدا مدى تعبكن وتعب أمعائكن من ذلك الطعام . لا أذكر إلا أنني كنت مع جوري ، نتناول الطعام وبنهم شديد. حتى أن والدتي ووالدة جوري بدأن يقلن ، تناولن الطعام رويدا رويدا ، لم الإستعجال ؟

ربما الشوق لذلك الطعام، الشوق للتغيير، الملل من الروتين في تلك الأماكن قاتل ، قاتل محترف . بعد تناولنا للطعام ، ذهبت لأذاكر قليلا ، ثم ذهبت للنوم . لم أذهب في اليوم التالي إلى الجامعة ، فقد قررت ذلك مسبقا من أجل والدتي . إستيقظت أنا ووالدتي وجوري ووالدتها ، بدلنا ملابسنا وتناولنا الإفطار ومن ثم بدأت أم جوري تصنع لنا القهوة ، كانت قد أحضرت معها الجهاز الخاص لصنعها على الكهرباء ، كانت لذيذة جدا . بعد كل ذلك ، وأنا موقنة تماما أنك تقول : ما هذا هل هو مشفى أم منزل؟

وذلك ما يضحكني في الأمر ولكن هذه هي الحقيقة ، أنا أخبرك كل شيء وسأبقى بجانبك حتى أنتهي . أخبرتني أم جوري أنه يتوجب عليها الذهاب إلى بنك الدم لتتبرع . جاءت الممرضة وقامت بأخذ والدتي إلى غرفة الأشعة. أخبروني أنه لا يوجد هناك داعٍ كي أذهب معهم . لم يبقى في الغرفة أحد سوانا. كنت أنا وجوري فقط . بدأنا نتحدث ونضحك على كثير من الأشياء التي كنا نراها ، فقد كان بعض المرضى يمارسون تصرفات غريبة ومضحكة . أذكر أننا ضحكنا بسبب مريضة خرجت من جناحها كي ترى ذلك الشاب الجميل الذي كان في ذلك الطابق .

طرحت جوري سؤالا ، إستغربت طرحه في تلك اللحظة. أجبتها بكل صدق أنني حتى الأن لم أجد ذلك الشخص. ولا أود البحث عنه . فهو شيء يأتي لوحده . أخبرتني جوري أن الشاب الذي خطبته ، كان شخصا تحبه جدا، كان أسمه شهاب ، كان دائما ما ينتظرها عند خروجها من المنزل ، فقط لينظر لها ويتمنى لها يوما جميلا ، أخبرتني أنها في البداية لم تحبه ، إلا أنها حينما وجدته عاشقا لها ورأت في عينيه حبها ، إستسلمت لذلك الحب ، دون أن تقدم نفسها ك أضحية وهذا هو الأمر الذي يجب أن يعلمه الجميع كما علمته جوري تماما . أن لا تقدم نفسك أضحية أمام من تحب وأمام من يخبرك أنه يحبك فأنت لا تعلم مقاليد الزمان دوما. أخبرتني أنه قد تقدم لخطبتها ووافقت. أخبرها عن مدى رغبته أن تكون شريكة حياته إلى الأبد. أخبرتني كم كانت تعشقه وتشعر بسعادة غامرة عند رؤيته والحديث معه إلا أنها فقدت شهاب وفقدت كل شيء كان يملكه. ظننت حينها يا صديقي أنه قد توفي أو أصابه مكروه ما . لكن الحقيقة المرة أننا أصبحنا نفقد الأشخاص وهم على قيد الحياة . نفقدهم ولا يبقى سوى بقايا الرماد. تشعر حينها بمدى رغبتك في قذف نفسك في البحر لتنسى وتتناسى ، لكن البحر يعلمك مدى رغبته في أن تكمل الطريق لوحدك مستخدما قوتك الخاصة، متوحدا فيها. أخبرتني جوري كم شعرت بمدى قوة طعنته، فقط حينما أصيبت بتلك الحروق ، كانت تلك الحروق كأوراق كشف الكذب. قالت لي : لقد كنت يا ساندرا، أشعر بمدى رغبتي في أن تقتحم تلك الحروق قلبي، كي لا أشعر بما قد جعلني شهاب أشعر به. أخبرني شهاب أنه لا يستطيع البقاء بجانبي ، كان ذلك الحديث هنا في المشفى وكان يقول أنه يريد أن يتركني لأنه يشعر بالأسى كونه لا يستطيع فعل أي شيء إتجاهي. كان يخبرها يا صديقي أنه سيبقى محبا لها وأنه لا يستطيع البقاء ورؤيتها بهذه الحال . قالت لي: أنها شعرت أن عيناه تخبرانها شيء أخر، فهو يكذب . هو يريد فتاة أخرى والذهاب إليها بعدما أصبحت أنا في هذا الوضع وفي هذه الحروق. هل تعلمين ساندرا كم أرغب بإقتلاع هذا القلب الذي قد أحبه يوما . قلت لها أننا أحيانا نكون كالعميان في الحب ، لا نرى ما هو أمامنا . أنا أعلم تماما يا جوري أن مصابك صعب ولكن في الحقيقة هذا الأمر ساعدك بقوة على إكتشاف ذلك .

أخبرتها أن الجميع ليس مثلي ومثلك يفكرون كما نفكر، ليس الجميع أوفياء، قد يقترب شخصان من بعضهما البعض من أجل مصالحهما المشتركة، أو قد يقترب شخص من الأخر من أجل مصلحة أو شيء ما يفقده وقد وجده عند ذلك الشخص ولكن أعظم شيء حينما يحدث ذلك الإقتراب بين شخصين عظيمين في الفكر والمبادئ . شهاب يرغب بفتاة جميلة جدا وكاملة كما يرى من منظوره، وحينما وجدك مصابة ، أبدل تفكيره وهذا أمر ليس بالغريب من شخص ، ينظر إلى الأرواح من منظور الواجهة فقط .

إعلم يا صديقي أن الجمال ليس كل شيء ، وإلا فنحن سنصبح مجرد نسخ متطابقة. الجمال لا يدوم، كل شيء في النهاية يذهب إلى الزوال والبقاء في دائرة الفقدان . عليك أن تبتسم حينما تكتشف شخصا جديداً ويضاف إلى ذلك الأرشيف الذي قد وضعته أنت في تلك الزاوية . لا تندم أبدا ، فأنت لا تخطئ . أنت قوي جدا بما فيه الكفاية يا عزيزي . أن تكون محاطا بالأعداء ذلك أمر جيد ، هذا يعني أنك لست أعمى ولست مع القطيع، أنت هو قائد القطيع . أيضا حينما يكون لك شخص واحد ترى فيه كل شيء تريده ، شخص تترسم فيه كل الأفكار القيمة ، روحه جميلة جدا . إعلم أنك محظوظ جدا إذا وجدت ذلك الشخص وأنت في الطليعة . وإذا كنت محاطا بالأوغاد فقط ولا يوجد أي أثر لذلك الشخص الجيد في حياتك ، إعلم يا صديقي أن هناك خطبا ما عليك المحاولة والمثابرة على تخطيه أنت تملك ذلك الشيء، عليك المثايرة والتحدي لمعرفة تلك النقطة التي تخل بوجود ذلك الشخص معك ، وكما أخبرتك عليك المحاولة لمعرفة ذلك وإذا لم تجد تلك النقطة ، إبقى صبورا ستجد ذلك الشخص لا محالة .

أخبرت جوري أن الخاسر هو . أنتي لم تخسري ، أنتي ما زلت تتربعين عرش مبادئك . وهناك الكثير ممن يتمنون فتاة مثلك ولا تنسي أنك ستشفين وأن تلك الحروق ستتبدل ، وهذا الألم الذي يسيطر على قلبك ، لا بأس به ، فترة الألم هذه لا بد لنا أن نعيشها . فقط علينا بالصبر وسيختفي ذلك الألم وستبقى الحكمة التي إمتلكناها هي المسيطرة . وستكون سببا في زيادة ثقتنا في إختيارتنا المستقبلية .

أنت لست ساذجا لوقوعك في تلك الأخطاء ، كل ما في الأمر أنك خلقت كي تتعلم ولم تخلق متعلما .

في اليوم التالي ، بدأت الأستعداد كي أذهب إلى الجامعة ، في تلك الأثناء جاءت الممرضة تخبر أم جوري أن الطبيب سيأتي بعد قليل فقد طرأت بعض التغييرات الضرورية والتي لا بد منها . قررت التأخر قليلا حتى نرى ما الأمر سويا . جاء الطبيب وأخبر جوري ووالدتها أنه سيتوجب عليهم نقلهن إلى مشفى أخر ، ذلك لأن جوري بحاجة إلى إجراء عملية دقيقة جدا والطبيب الماهر في تلك العملية ، يتواجد في ذلك المشفى. قام الأطباء بتجهيز الأوراق اللازمة للنقل والتحويل إلى ذلك المشفى . بدأت جوري ووالدتها بتجهيز كل شيء، مستعدتان للرحيل من المشفى، كانتا على إستعجال وكنت أنا كذلك، لا أعلم هل أبقى مع جوري أم أذهب إلى الجامعة . فبقيت مع جوري ، أساعدها قليلا وكنت أراقب والدتي أيضا ، كنت شديدة العجلة ومن أجل ذلك قررت الخروج بسرعة ، راكضة حتى لا أفقد تلك المحاضرة . لقد أخبرتك عنها ، لذلك لن أعود وأخبرك .

ذهبت مسرعة وكانت جوري مسرعة وحينما كنت بالقاعة الدراسية ، تذكرت حينها أنني قد نسيت أخذ رقم جوري ، كيف نسيت ذلك ؟ حتى الأن أنا لا أعلم كيف كان ذلك. لكن العجلة والخبر المفاجئ كان له سبب كبير في ذلك الأمر . هذا حقا ما قد حصل . كنت أشعر بحزن كبير حينما عدت ولم أجد جوري ووالدتها . كنا لوحدنا أنا ووالدتي ، تجالسنا وتناولنا الطعام وقرأنا القليل من ذلك الكتاب الذي قد أحضره أبي ، كان كتابا عن العلاج بالأعشاب بالإضافة إلى وجود صفحات تختص بالحكم والأمثال القديمة ، كانت جميلة جدا وكان البعض منها مضحك ، بالذات حينما تفكر أنت بمعنى والأخر يحتمل له عدة معاني وتبقى على إصرار شديد على ذلك المعنى الذي قد إخترته وفكرت به . كن قويا يا صديقي حتى في إختيارك تلك المعاني ، عليك دائما أن تمتلك رأيا في كل شيء حتى لو كان صغيرا . كنا فعلا في تلك الغرفة نشعر بالوحدة حتى اليوم التالي .

على جانبي السرير هناك صديقتان

بعد ذهاب جوري ، أصبحت الغرفة فارغة من الأصدقاء كنت ووالدتي نملئ ذلك الفراغ ، بأحاديثنا ونقاشاتنا وكنت أستغل الوقت للدراسة والقيام بالأبحاث والقراءة التي يجب علي القيام بها . وفي اليوم التالي ذهبت مع والدتي من أجل أخذ صورة الأشعة وحينما عدنا إلى الغرفة وجدنا مرة أخرى أصدقاء جدد في غيابنا كل على سريره المقابل ، كان حول كل سرير مجموعة من الناس والأطفال ولم نتكلم بأي شيء . كانت أمي متعبة ، ولذلك لم نتحدث في ذلك اليوم أي شيء .

في اليوم التالي إستيقظت وكنت أستمع لصراخ وضحكات ، كان الصوت عاليا جدا ، إستغربت من ذلك كثيرا . ما القصة يا ترى ؟ كنت أرى الإمرأتان اللتان قد جاءتا حديثا إلى غرفتنا ، كل منهما تركض خلف الأخرى. لم أعلم شيء سوى أن إحداهما تريد بيجامة الأخرى ، لأنها قد أعجبتها كثيرا. كانت إحداهما تضحك والأخرى تصرخ وتريد بيجامتها وأستمر ذلك المشهد حتى جاءت الممرضة . بدأت بالضحك عليهن وحظيت تلك المرأة بالبيجامة التي أرادتها وكانت صاحبتها تبتسم . بعد خروج الممرضة جاءت من أرادت البيجامة وقالت لي : صباح الخير ، ما أسمك أيتها الجميلة ؟ ضحكت وقلت لها ساندرا . قالت لي : أسمي سارة وإسم صديقتي دانا .

إستيقظت والدتي على أصواتنا . تناولنا الفطور ، وبدأت الممرضات والأطباء بالقدوم ، كنت في تلك الأثناء ما زلت بقرب أمي . لم يقرر الطبيب أي شيء حتى الأن . خرج الجميع وبدأن بالتحدث ، يعرفن عن أنفسهن ، قالت سارة أنها جاءت إلى المشفى بسبب زوجها وحينما جاءت كانت صديقتها تنتظر هناك أيضا ، كان القدر قد جمعهن سويا . قالت سارة أن دانا قد توفي زوجها وجاءت إلى المشفى لأنها ستقوم بعملية وأنهن قد أخبرتا المسجل أن يضعهن في الغرفة ذاتها. كنت أستمع أنا وأمي لهن ، كانتا مضحكتين جدا ورائعتين ، كنا نشعر بالراحة لتواجدنا معهن . جميل جدا أن تمتلك مثل هؤلاء الرفقاء في تلك الغرفة .

جاءت الممرضة إلينا ، كي تقيس درجات الحرارة والضغط، وإذ بسارة تصرخ أمام الممرضة وتقول: " ليش حابة تقيسي ضغطي ، ما هو مرتفع وما دام رح ظل مع هالزلمة ، عمره ما رح ينزل " وبدأت تقول سارة للمرضة "إبتعدي عني ، أنا بعرف كل شيء بدون ما تقيسي" كنا نضحك جميعا . أنهت الممرضة عملها وذهبت إلى الخارج. بدأت سارة تقول:" سوف تصيبيني عشر جلطات للمستقبل، سوف يستقبلني هذا المشفى كثيرا " كانت تتحدث وتمزح وتضحك، كل ذلك دفعة واحدة. قالت أيضا أن صديقتها دانا، قد دخلت المشفى لأنها قد خسرت زوجها ، لم تعد تحب أي شيء وترغب باللحاق بزوجها ومن شدة حزنها ، إضطرت الدخول إلى المشفى ، لاجراء عملية الشرايين.

كانت سارة ضد دانا ، وكانت تقول لها بطريقة المزاح : أنها لو فقدت زوجها مثلما حصل معها ، ستكون ممتنة أنها قد تخلصت منه بطريقة قانونية . ومن ثم قالت لها أمي ، قد تفترقا ويتزوج بأخرى ، إلا أن سارة أصبحت تقول: أتمنى ذلك، وأنتهي من مسلسل ذكريات لا تنسى. بالنسبة لدانا فقد كانت حزينة جدا ، مع أن صديقتها تستخدم جميع الطرق والوسائل كي نضحك ونبتسم . لكنني كنت أرى الحزن مسيطرا على وجهها . كانت تقول دانا هو لم يكن مجرد زوج، لقد كان كل شيء بالنسبة لي ، لقد كان صديقا، أبا، أخا، حبيبا ، وأيضا زوجا عزيزا. كنت أشعر بألم شديد في حلقها، وكأن تلك العبارات تقتلها . فقد من تحب ، فقد من كان يعني لك كل شيء ، ليس بالأمر السهل .

لم أتحدث أنا ووالدتي أي شيء ، فنحن أيضا كنا بوضع لا يعلم به أحد . الأطباء مستأءون من وضع والدتي. كانت قد فقدت الكثير من وزنها . كنا قد إستمررنا لمدة أسبوع على هذه الحال . كانت أصوات الضحك في الغرفة لا تنقطع. أذكر مرة دخل فيها ممرض إلى الغرفة ، شاب مهذب ومضحك أيضا . قالت له سارة أنا وكل من في الغرفة نريد الذهاب إلى كنتاكي ، كي نتناول الطعام فلقد أصبحت أمعائنا صدئة من ذلك الطعام "وإنت لأنك منيح رح تخلينا نطلع وبنوعدك نجيبلك معنا شوية أكل "، "لا تخاف ما بنسى الناس الطيبة ". كان الممرض ونحن نضحك وبشدة ، ثم جاء ليسحب عينة من الدم، فقالت له : كيف تأخذ عينة من دمي فهو فاسد.

لن أنسى مقدار الضحك الذي ضحكناه في تلك الليلة. من شدة التعب والضحك نام الجميع . وفي اليوم التالي جاء الطبيب ليخبرنا بنتائج الفحوصات وكل شيء أخر . قال الطبيب أن السرطان منتشر جدا ويصعب علاجه ، لكننا سنحاول أن نساعدك كي تستطيعي التنفس . هذا فقط ما نستطيع فعله بالإضافة إلى أننا سنقدم لك العلاج الهرموني لإنهم قد وجدوا أن جسدها يستطيع تحمله . قال لنا في ذلك اليوم ، أننا نستطيع الخروج بعد يومين من المشفى .

بعد مرور تلك الأيام قمنا بمراسم الخروج المعتادة وودعنا صديقتينا. أخبرنا الطبيب أنه يتوجب علينا العودة بعد شهر كامل. وكالعادة سأخبرك يا صديقي أن العودة جميلة جدا حينما تشعر أيضا أن مريضك قد أصبح بحال أفضل .

هي التي قد قهرت الألم بحبها

بعد مرور إسبوعين ، ذهبت أنا ووالدتي إلى المشفى . كنت أنا وأمي في تلك الفترة بحالة حزن شديدة . هذا أمر طبيعي فنحن بشر والبشر يعتريهم الحزن والأسى ، ليست كل أيامك ضحك ولعب ، ليست كل أيامك سعيدة . ستشرب من هنا وهناك وعليك بالصبر ، عليك أن تتحلى بالصبر .

حينما أدخلنا إلى غرفتنا وجدنا فيها إمرأة . رحبت بنا تلك المرأة بشكل لطيف وجميل والناظر بها يرى أنها لا تشكو من خطب ما ، ولكن حينما جاءت الممرضة نحو والدتي لتمارس عملها . ذهبت أنا لتلك المرأة التي كانت ترحب بنا عند دخولنا ، طلبت مني أن أقرب الكرسي المتحرك بالقرب منها ، وحينما نظرت إلى السرير وإذ بقدمها اليسرى مبتورة ، حزنت جدا حينما رأيتها بتلك الحال . شكرت الله في داخلي على النعم التي لا تحصى ودعوت لها بالشفاء . أنت تشكر الله على نعمه ، ولكن حينما ترى أحدهم يعاني من فقدان عضو له ، تشعر حينها بتلك النعمة وبنعمة شكرا .

ساعدتها في الجلوس على الكرسي ، كانت تريد الذهاب عند والدتي والحديث معها ، فقد كانت تشكو من الوحدة لمدة أسبوع ، ولقد أعلمتك يا صديقي أن الوحدة صعبة جدا ، هو أمر صعب إلا أنه لا بد منه .

كانت تتحدث مع والدتي ، إلا أنني قد رأيت الحزن في عيني والدتي ، صديقي العزيز عليك أن تعلم ، أن أكثر شخص يشعر بالمريض هو رفيقه المريض الأخر . فالألم الذي بالداخل لا يشعر به أحد غيرهم . كانت والدتي ترى أن فقد القدم أشد بلاء من مرضها ولا تنسى يا صديقي أنها لا تستطيع المشي كالسابق ، ربما كانت ترى ذلك لأن فقد عضو منك هو بمثابة فقد أخ لك بل أشد من ذلك ، فهو عضوك أنت ، صديقك الملازم لك منذ الطفولة . ذهبت أنا وتركتها مع هذه الصديقة الرائعة ، أحسست حينها أن المشفى كنز للأصدقاء والأحبة .

كان إسمها عهود ، تركت عهود تحادث والدتي . كنت أرى والدتي تأخذ جرعات إضافية من الصبر عن طريق عهود . الرائع في عهود أنها كانت تتحدث بقيم جميلة عن الصبر والتحمل ، تتحدث بقوة وضحك ، تشعرك بسذاجتك حينما كنت تحزن وتغضب على تلك الأشياء . كانت تقول لنا : لماذا أحزن ، لماذا أجعل حياتي كالجحيم ، هل أصرخ أمام نفسي كل يوم لماذا أنا ؟ ما الذي صنعته؟. هذا تحدي من الحياة لي ، كان شيء مقدرا لي ، وجميعنا سنموت في النهاية ، فلماذا الحزن والألم وأنا على يقين أنها لن تجدي أي نفع .

كانت تقول لنا أيضا حينما كنا نجالسها ، إن الفكرة ليست فيما قد حدث معك ولماذا حدث ذلك معك ؟ إن الفكرة الحقيقية التي يجب أن تملئ رأسك ، هي كيف سأستمر وأعيش وأنا قد أصبحت هكذا . ما هي الخطط الجديدة وما هي التصرفات الجديدة التي يتوجب علي أن أتبعها منذ الأن وصاعدا . الفكرة هي تقبل الواقع ، ولكن عدم الرضوخ له . هذا هو التحدي الأعظم يا صديقي . فعلا يا صديقي ، قد يأتي طبيبك النفسي دون أن تدري . وقد تكون أنت طبيب نفسك يا صديقي .

أخبرتنا عهود أنها متزوجة ولديها طفل رائع في غاية الجمال ، كان كريم يمثل عالمها الخاص ، عالما جميل بعيد عن كل الترهات والسقوطات . هي تحارب كل شيء من أجله . قد تخسر شيء ، لكنك ستحصل على شيء أخر في المقابل . أحيانا قد يكون سبب وقوفك من جديد هو شخص ما ، موجود في عالمك أنت ، يعني لك الكثير ، بل يعني كل شيء بالنسبة لك . عليك أن تكون صبورا يا صديقي ، عليك أن تكون تلك الشعلة التي لا تنطفئ كي تضيء طريقك وطريقهم .

مهما حصل عليك الوقوف مجددا ، الوقوف لا يتطلب هنا أي أقدام ، هو يطلب منك فقط أن تعاود الوقوف بعقلك فقط . عليك أن تترك الخوف جانبا حتى لا يصبح عائقا أمامك .

قالت لنا عهود أنه بعد قطع قدمها ، وقد كان ذلك سببه خطأ طبي ، قام به أحد الأطباء. أخبرتنا أنها تمارس واجباتها المنزلية وتقوم بكل شيء حتى بعد قطع قدمها اليسرى . سأخبرك شيئا يا صديقي لم تتحدث به عهود ، لقد رأيت يا صديقي الإخلاص والحب، لقد رأيت الشوق والرحمة في زوجها. كان يأتي بين الحين والأخر ليطمئن عليها . يراها كل النساء. ذلك هو الرجل الحقيقي، ذلك هو الحب الجميل. حينما تحب أحدهم ويكون ذلك الحب نابعا من القلب، لن تتخلى عنه وقت حاجته إليك، ستبقى الصخرة التي يرتكز عليها. وسترتقي بداخل قلبه حتى تصل إلى القمة. الألم لن يكون مؤقتا. عليك أن تحب الألم كي تقهره، كي تساعد غيرك في ألمه. كان طفلها الوحيد يأتي مع والده في بعض الأحيان، وذلك لأن مكان عيشهم بعيد جدا عن المشفى الذي قد كنا فيه. كان يخبرها عن مدى إشتياقه لها، وكم يرغب بتناول طعامه بجانبها .

كان زوجها قبل كل شيء إنسانيا قبل أن يكون زوجا ومحبا . كانت عهود تذهب إلى المشفى وذلك يعود إلى أنها كانت تتعرض لنزيف في قدمها المبتورة ولم تعلم ماهية السبب ، فجاءت إلى المشفى .

بالنسبة لأمي فقد إستمرت في تناول الدواء الذي قد أقره الطبيب. في تلك الأوقات كنت أنا ووالدتي نمضي يومنا على الحديث مع الممرضات ، تناول الطعام ، مشاهدة برامجنا المعتادة طبعا على الهاتف بالإضافة إلى أحاديثنا ونقاشتنا التي كانت مع زميلتنا عهود . كنا نحاول وبجد الإبتعاد عن الروتين .

جاء إلى الغرفة فتاة جديدة ، قاموا بإدخالها إلى غرفتنا. أصبحنا في الغرفة ثلاثة أمي وأنا وعهود والفتاة الجديدة التي تدعى إيفا .

كانت إيفا ممن يترددون إلى المشفى وبكثرة ، لأنها قد كانت تعاني الكثير من الألام في كليتها. كانت تقوم بإجراء غسيل للكلية من وقت لأخر. كانت إيفا فتاة غامضة جدا بالمقارنة مع زوار المشفى وساكنيه. كنا كما كنا ، نمارس كل شيء عهدنا عليه، نقوم بإجراء فحوصات وأخذ عينات . يبدو أن الكاتبة يا أصدقائي لم تتدخل حتى الأن في أحاديثي وفي روايتي لكم كل تلك الأحداث، إذن يتوجب علي أن أستغل ذلك الأمر وأنتقل بكم إلى محطتنا القادمة .

إيفا وصديق البسكويت

حينما قاموا بإدخال إيفا إلى الغرفة ، إرتدت رداءها ثم جلست على السرير وبدأت تتحدث على الهاتف . كنت أجلس على الكرسي بجانب أمي ، لم يكن هناك أي شيء لأفعله سوى الجلوس والنظر بمن هم حولي ، أراقب الوجوه وأحاول دراستها . كانت تلك هي هوايتي وتسليتي الوحيدة ، الرغبة الشديدة في فهم الكينونة البشرية ، ذلك فقط هو ما كنت أرغب به. لم أرغب في الذهاب والتحدث مع إيفا في البداية ، كانت نظراتها إلينا وتحركاتها تخبرني أنها ترغب بالبقاء لوحدها . الرغبة بالبقاء وحيدا ، ليس بالأمر السيء، فنحن بحاجة ماسة لذلك في بعض الأوقات كانت إيفا فتاة لطيفة . إلا أنني كنت ألاحظ أن إيفا تتحدث أثناء نومها، كانت تقول مثلا بسكويت، نعم، رائع ذلك البسكويت.

كنت أنا يا صديقي كما تعلم ، أنني لا أستطيع النوم ، فكنت كل يوم أسمع إيفا تردد العبارات ذاتها . أصبحت أرغب فعلا في معرفة قصة البسكويت هذه ولماذا تقولها كل يوم ؟. أذكر أنه بعد مرور عدة أيام جاءت والدة إيفا لتطمئن عليها . كانت الأم تتحدث وتضحك مع إبنتها، يبدو أن الأم معتادة على ذهاب إبنتها إلى المشفى. علمت في ذلك اليوم أن إيفا تذهب إلى المشفى كل بضعة شهور من أجل القيام بغسيل للكلية. كان شيئاً متعبا جدا بالنسبة لفتاة شابة . بقيت الأم مع إيفا حتى المساء ، ودعت إيفا وتحدثت معنا قليلا قبل خروجها .

حينما خرجت والدتها ، شعرت حينها أن الحزن قد سيطر على إيفا وكأنها تنتظر أحدهم . لم تكن بتلك السعادة التي يرجى أن تكون بها . كانت أمي وأم كريم في تلك الأثناء يتحدثن عن مدى الرغبة الشديدة في الخروج من المشفى، وكنت أنا جالسة بجانب النافذة كمن يترنم بجانب جدول قريب من النهر. كنت أتنقل في عالمي كمن يبحث عن نفسه، يبحث عن شيء ما ولا يعلم ما هو. كنت أرغب في معرفة الشيء الذي أرغبه في هذه الحياة ، قد لا تذكر يا صديقي ما تريده وما كنت تريده ، ما هو حلمك وما هي رغباتك . تفقد نفسك في لحظة ما ، لكن عليك أن تعود ، يتوجب عليك العودة والعزم على معرفة هدفك ورغبتك في هذا الكون من جديد .

في اليوم التالي خرجت من الغرفة وذهبت لأتحدث مع الممرضة، من أجل أمر أحببت الإستعلام عنه. حينما عدت إلى الغرفة وإذ بشاب في نهاية العشرينيات تقريبا، كان خارجا من الغرفة ومبتسما ولكن ملامحه قد تغيرت فجأة إلى غير ذلك. لم أعر الأمر أي إهتمام ولكني حينما دخلت ، نظرت إلى إيفا وضحكت بوجهي ، القيت التحية عليها وذهبت نحو أمي . إستمرينا على هذه الحال حتى اليوم التالي واليوم الذي يليه وأنا أرى ذلك الشاب يخرج بتلك الحال ، فكنت حينما أعود من الجامعة أراه . كان أمرا غريبا ولكن ما شأني . في اليوم التالي بقيت في المشفى عند والدتي ولم أذهب إلى الجامعة وكنت أجهز نفسي من أجل الاختبار . في تلك اللحظات وإذ بذلك الشاب نفسه يدخل إلى غرفتنا ، كان متجها نحو إيفا . رحبت به إيفا وجلس على الكرسي بالقرب من سريرها ، كانت السعادة والبهجة تغمر إيفا . كان ذلك ظاهرا وبقوة على ملامحها .

سمعت ضحكاتها ونغمات صوتها تتصاعد من شدة البهجة . كنت أسمع كثيرا كلمة المعمل ، معمل البسكويت الذي يعمل فيه . لم أسمع سوى عبارات التحفيز والأمل التي يلقيها إليها . كان يعدها بأنها ستصبح ملكة عرش منزله ، ليس فقط منزله بل وقلبه . كان محملا بعلب بسكويت صغيرة ، يخبر إيفا أنه عليها أن تتذوقها جميعها. بعد كل ذلك علمت سر تلك الكلمات التي تصدر من إيفا في الليل وعلمت سر سعادتها . لم يكن البسكويت هو سبب تلك السعادة الحقيقية وإنما كان هو . خرج من الغرفة وبقيت أنا وإيفا وحدنا في الغرفة . فقد كانت أمي وأم كريم في ممر الطابق الخامس عند النافذة الكبيرة ، فقد شعرتا بأمس الحاجة لتغيير المكان. رأيت إيفا تبكي فجأة بعد كل ذلك الضحك وكل تلك السعادة . ما السبب ؟ ذهبت إليها وجلست بقربها . بدأت أتحدث معها، أحاول تهدئتها .

بدأت تتحدث ولم أعلم أن تلك البداية ستكون بداية الصداقة . قالت لي : أعلم يا ساندرا أنني لم أتحدث معك منذ قدومي إلى هنا ، لكن الحزن والأسى يكويان صدري لذلك لم أرغب بالتحدث مع أي أحد هنا مع ان الجميع هنا لطفاء جدا ولكنني سأخبرك كي أرتاح قليلا . قلت لها تحدثي يا عزيزتي. قالت لي : أنا أعاني يا ساندرا من مرض يجعلني أسيرة الذهاب إلى المشفى كل فترة ، أبقى فيه أحيانا أسبوعين كاملين . والشاب الذي رأيته يتردد على المكان ، يدعى نيكولاس . لقد تعارفنا على بعضنا قبل عامين ، كان ذلك في حفل زفاف لإصدقاء .

كنت في ذلك الوقت لا أعاني من أي شيء . تحول الإعجاب إلى حب جميل جدا . كان دائما يقول لي أنه صديق البسكويت ، لم أعلم ما يعنيه ثم أخبرني أنه يعمل في معمل للبسكويت وأن حلم طفولته هو ان يمتلك معملا خاصا به . كان يسألني دوما عن نوع البسكويت الذي أحبه ولكنني أخبره دائما أنني لا أحب نوعا معينا بحد ذاته ، لذلك ترينه يحضر عدة أنواع لي . حينها شعرت يا ساندرا حقا أنه الشخص الذي يناسبني . جاء إلى عائلتي يعرض علي الزواج ، لكن عائلتي رفضت ذلك تماما لأنني لم أنهي دراستي بعد. وبعد أن أتممت وأنهيت دراستي أصابني هذا المرض ولم أرغب أبدا بإخباره ، لم أرغب برؤية رد فعل ، قد يكون سببا في القضاء علي ، فالتزمت الصمت ، لكن في يوما ما وجدته يطرق باب منزلي ويخبرني مرة أخرى أنه يريد الإرتباط بي . جاء والدي وأخبره كل شيء وبمرضي وأنه يلتزم علي الذهاب إلى المشفى بين الحين والأخر ، حينها ذهب نيكولاس من المنزل حزينا جدا . وأخبرني والدي أنه لن يعود مجددا ، لكن في الحقيقة أن نيكولاس قد أرسل إلي بعد مرور عدة أيام رسالة نصية تقتضي أن أذهب إلى حديقة المنطقة وأنه يريد الحديث معي .

حينما ذهبت إليها كان غضبانا جدا ، لأنني لم أعلمه عن ما قد أصابني ، ولماذا لم أخبره . أخبرني أنني لا أعلم ماهية الحب جيدا . أخبرته أنني لم أرغب بإخباره كي لا يحزن ولأنني أعلم أيضا أنه قد تتبدل رؤيته إتجاهي وأنه قد لا يرغب بالإرتباط بي مجددا. لو تعلمين يا ساندرا ماذا حصل . لقد تساقطت دموعه على وجنتيه وخجلت فعلا مما صنعت ، غضب وبشدة وقال لي : حينما تعلمين ان الحب أكثر بكثير من كل تلك الإشكالات الواهمة، ستعلمين حينها حقيقة مشاعري إتجاهك. أنا لا أستطيع أن أتركك مهما حصل، كيف أتخلى عن نصفي الأخر ؟ كيف سأتمكن من العيش بدونك يا إيفا . كيف تجعلين ظنونك. إجابت وكأنها قد صدرت مني . لم أتوقع ذلك منك يا إيفا. أخبرته يا ساندرا أنني لا أرغب أن أراه حزينا لما يحصل معي ولا أريده أن يشارك هذا الألم معي فأنا أحبه جدا . لكني علمت أن حبه ومشاعره صادقة جدا بعد ما حصل معي . شعرت بقوة الحب الذي بيننا في تلك الأوقات . سألت إيفا لماذا الحزن إذن يا صديقتي ؟ أخبرتني أنها تتألم حينما ترى الحزن بعينيه ، هي تعلم أنه يحبها بشدة لذلك لا ترغب أبدا برؤية الحزن في تلك العينين .

سأخبرك يا صديقي لقد رأيت ذلك الحب ، الحب الحقيقي. حب لا يكسره شيء ، لا ظروف ولا أناس . حب يكسر جميع القواعد المسماة تحت شعار الظروف . تعلق نيكولاس بإيفا كان تعلق القلب بالقلب ، وحينما يكون التعلق بالقلوب ، فيستحيل كسر ذلك الحب إلا إذا كسرت قلوب أصحابها .

شعرت فعلا برجولة نيكولاس ، فقد قطع عهدا لإيفا وبقي على ذلك العهد ، لم يجبره أي شيء أن يقوم بكسر عهوده . هذا هو الرجل الحقيقي الذي يبقى على عهده مهما كانت الحياة كاحلة اللون في عينيه .

حينما أنهيت حديثي مع إيفا ، ذهبت إلى غرفتنا ، جلست مع أمي وأم كريم أما إيفا فقد ذهبت إلى صديقتها الممرضة. جاء الطبيب إلى أمي وأخبرها أنها بحال جيدة ومستوى السوائل قد تناقص جدا وأنه سيكمل علاجها الهرموني. جاء الطبيب إلى أم كريم وأعلمها أنها ستخرج أيضا ولكن بعد عدة إيام. بالطبع أخبرنا الطبيب أنه يتوجب علينا العودة بعد شهر كامل. أما بالنسبة لإيفا فقد كان ظاهرا أنها ستبقى لأسبوع أخر . عدنا إلى المنزل في اليوم التالي وكنا نشعر بالسعادة الغامره في كل مرة .

صديقي أنا أريدك أن تكون على بينة من الأمر ، حتى لو كان المشفى هو مكان العلاج وحتى لو كان معك أصدقاء رائعون إلا أن شعورك وكأنك أسير ذلك المكان سيبقى مرافقا لك . ترغب أن تعود إلى حياتك السابقة بعيدا عن الخوف والقلق والحزن مما يحدث معك ومما تراه يحدث مع الأخرين .

محمد الخطيب وصديقه محمود

سأقول لكم عن محمد الخطيب هذه المرة وعن صديقه محمود ، سأخبركم أمرا هاما في البداية ، هو أنني أعلم من هو محمود وأعرفه منذ صغري وما زلت أحاول أن أفهمه ولكن محمد هو شخصيتنا الجديدة .

سأفاجئكم فالتي تتحدث الأن هي ليست ساندرا ، هذه المرة أنا هي التي تحدثكم، فلقد تكلمت ساندرا كثيرا وأعتقد أنه قد حان دوري للكلام في هذه الحكاية. سأتحدث عن ساندرا وعن محمد ومحمود ، ذلك لأن بطل ساندرا هو محمد. سأخبرك يا صديقي منذ البداية ولكن عليك الإنتباه جدا لتحركات ساندرا، ذلك لأن ساندرا ستكشف الكثير لنا عن نفسها .

كان ذلك في منتصف شهر أبريل ،حينما عادت ساندرا ووالدتها إلى المشفى بعد شهر كامل وأنقضت المدة وأنتهى الشهر. ذهبت ساندرا مع والدتها إلى المشفى وفي هذه المرة تم الإدخال في طابق غير طابقهم المعتاد، الطابق الخامس كما تذكر يا صديقي. لم تكن غرفة 552 التي قد إعتدنا عليها. كان الإدخال هذه المرة في الطابق الثالث وذلك لعدم توافر مكان في تلك الغرفة ، بالإضافة إلى سبب أخر يتعلق بأهمية خضوع والدة ساندرا للعلاج الطبيعي. ذهبت ساندرا مع والدتها إلى ذلك الطابق ، الطابق الثالث غرفة رقم 305 . كان في تلك الغرفة إمرأة بين الخمسين والستين ، كانت على سريرها وبقربها فتاة وكأنها في نهاية العشرينيات . دخلت ساندرا ووالدتها وقامت الممرضة بتجهيز كل شيء وبدأت تقيس درجات الحرارة والضغط ريثما يأتي الطبيب . كانت الساعة السادسة تقريبا وكانت الشمس قد إقتربت من المغيب ، سمعت ساندرا صوت الفتاة التي كانت مع تلك المرأة ، كان يبدو عليها الإنزعاج وترغب بالرحيل فورا وتصرخ على الهاتف بوجه أحدهم حتى يأتي ليحل مكانها .كانت منزعجة وبشدة لتأخر الشخص الذي تحادثه وعدم قدومه إلى المشفى بسرعة .

بعد مرور ساعتين تقريبا وإذ بشاب طويل القامة ، أشقر ، بعينين بنيتين يدخل إلى الغرفة وتقول له تلك الفتاة :" مرة تانية لا تعيدها سيد محمد ، طيب أخوي إنت ما عندك شغلات متلي"" . إذن فذلك الفتى هو إبن تلك المرأة وتلك الفتاة هي أخته . ذهب ذلك الفتى يائسا نحو سريروالدته وحينما جلس ذلك الفتى وهو شخصية حكايتنا بدأ يبدل ملامحه وبدأ الضحك يترسم على وجهه ، كل ذلك من أجل والدته ، كان ذلك هو محمد الخطيب .

بدأ يقبل وجنتي والدته وبدأ بالحديث معها ، كان ينقلها نقلة فورية من تلك المجالسة التي كانت مع أخته إلى مجالسة أكثر من رائعة ، يلقي أحداث يومه ، يخبرها عن أصدقائه وشقاوتهم ، يضحكها وبشدة ثم يلقي لها أشعار صديقه محمود. معظم الناس تعرف محمود . نعم هو محمود درويش. كان محمد شديد الإعجاب به ، وكان يخبر والدته أشياء تخص محمود كأنه يتحدث عن شبابه وعن قصة حبه التي تخص تلك الفتاة ، بعضهم من يقول أنها يهودية وهناك من يقول لا ولكن بالنسبة لمحمد ليس ذلك بذي أهمية ، كان يهمه أفكار محمود ، الأشياء التي يتميز بها ، كان محمود صديق عزيز ليس فقط لمحمد بل للكثيرين حول العالم ، لقد كان ذلك الصديق هو محمود درويش . كان محمود درويش قدوة وصديقا ورفيقا لمحمد في أثناء جلساته في المشفى بالقرب من والدته . كانت ساندرا تشعر بمدى أهمية محمود درويش لمحمد .

سأخبرك يا صديقي أنه حينما نعجب نحن البشر بأحد ما ونجعله قدوة لنا ، عليك أن تعلم أنه يبقى إنسانا والإنسان لا يتصف بالكمال . قد تجد لديه يا صديقي أفكارا ، مبادئ أو حتى تطلعات معينة تكون مشابهة لك أو لما تطمح وترغب فيه . حتى ساندرا فقد كانت من معجبي محمود درويش ، كانت ساندرا تسترق السمع لتلك الأحاديث التي كانت بين محمد ووالدته ، هي تعلم أنه لا يحق لها ذلك ولكنها كانت تطوق جدا لسماع تلك الأشعار والكلمات التي يبعثرها محمد في تلك الغرفة .

كانت إدارة المشفى لا تسمح للذكور والرجال بالبقاء في قسم النساء بعد الساعة العاشرة . كان محمد يأتي منذ الصباح ، تقريبا الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة العاشرة ليلا . قبل أن تصبح الساعة العاشرة تماما ، كانت إحدى أخوات محمد تأتي لتبقى في الليل مع والدتها . أدركت ساندرا أن علاقة الفتيات بوالدتهن وبمحمد علاقة ليست قوية وذلك لصراخهن الذي يصدع الرأس في الصباح ، كن لا يرغبن حتى بالقدوم إليها إلا أن شعورهن أنه أمر لا بد منه كان دافعهن لذلك . كانت ساندرا تراقب الأمر وكيف أنهن لا يرغبن بالحديث معها مع أن محمد ووالدته لطفاء جداً وكنّ يتحدثن دائما أنهن قد تأخرن عن العمل أو أنهن قد تأخرن عن الذهاب إلى بيوتهن . لم تعلم ساندرا مدى تلك القسوة . كان أمرا يبعث على الحزن ، لكن محمد كان حينما يأتي يجلب السعادة معه يجلبها حقا إلى والدته وإلى ساندرا .

كانت والدة محمد تعاني من اللآلام الشديدة في البعلوم ، حتى أنه بعد ذلك أقر الطبيب بضرورة إجراء عملية ، كانت تلك العملية بالغة الخطورة فالإلتهاب قد إنتشر أكثر من الازم في تلك المنطقة . كان ذلك أمرا بالغ الصعوبة بالنسبة ل محمد ، في تلك الفترات والصعوبات التي كانت تمر بها ساندرا ، كان القدر قد جمعها مع محمد ولكنها لم تكن تعلم ذلك إلا بعد مرور الكثير . كانت ساندرا في تلك الفترة قد بدأت تعجب بمحمد ، وذلك لأسلوبه الرائع في التعامل مع والدته ، كان هادئا إلا أنه قد كان مرحا في الأوقات التي كانت تتوجب ذلك . كان رقيقا جدا في أحاديثه مع والدته . كان ذلك الأمر هو ما قد دفع ساندرا لتحب محمد بعد حين فقد كانت دائما ترى أن الرجل الذي يقدر والدته ويحاول جاهدا التخفيف عنها ، هو الرجل الحقيقي الذي يناسبها ، هو الشخص الذي تراه ساندرا أنه مهما قدمت لها سيبقى محتفظا لذلك في عقله ولن ينساه وسيظهر في جميع تصرفاته . هذا ما كانت تراه ساندرا يا صديقتي وليس ذلك بقاعدة لك ، فقط عليك أن تكوني ذكيه فتكشفين كل شيء تريدينه أنت .

كان محمد لا يعني لساندرا سوى شخص قد أثار إهتمامها وإعجابها ، ولكن مع مرور الأيام بدأت تكن له مشاعر أكثر فأكثر ، كان الوقت سر التغير في قلب ساندرا، فقد بدأت ترى كل شيء بتمعن وبحكمة أكثر وكان محمد يزيد من ذلك بتصرفاته وبأقواله دون أن يعلم . في يوم من الأيام ، كانت ساندرا قد ذهبت مع والدتها نحو عيادة الطبيب وبعد الإنتهاء ذهبت ساندرا ووالدتها صوب الغرفة وإذ بمحمد يحمل أغراض والدته في يده اليمين ويحمل البشكير في يده اليسار ويساعد والدته على تغسيل أطراف أصابع قدمها فقد كانت كثرة الإستلقاء على السرير قد ألمت قدمها، وكانت عملية التدليك تحت كاهل محمد . كان ذلك المشهد بالنسبة ل ساندرا مشهدا جميلا جدا ، ربما إستطاع محمد أن يفهم ذلك من عيني ساندرا ، فقد كانتا متوهجتين جدا . بعد ذلك بدأ محمد يحاول أن يعرف قصة ساندرا ووالدتها وما سبب كثرة ذهابهن إلى غرفة الأشعة .

إعلم يا صديقي أن هذا التطفل والفضول الذي قد تراه في ساندرا كان منذ بدايتنا في أحاديثنا وإذا نظرت لمحمد فهو نفس الشيء . أريد أن أعلمك يا صديقي أنك حينما تكون في غرفة لفترة زمنية ليست طويلة جدا ولا قصيرة فتنتهي بسرعة ، إلا أنك ستشعر برغبة عامرة في أن تستكشف كل شيء حولك من أجل أن تساعد الوقت على المضي ومن أجل أن تزيد معرفتك حتى لو كانت تلك المعرفة متجردة بالأشخاص ، فقد تكون تلك المعرفة هي الطريق إلى معرفة عظمى . قد لا تعلم يا صديقي ما هي إلا أنك ستعلمها في النهاية .

في اليوم التالي إستقبل محمد ساندرا بإبتسامة بادية على محياه وقال لها : صباح الخير ، أرجو أن يكون يوما جميلا . قالت له ساندرا : صباح الخير وأتمنى ذلك لك أيضا إلا أن مشاعر الحزن والغضب كانت بادية جدا على وجه ساندرا. كان ذلك يا صديقي يعود إلى شدة حزنها على والدتها ، فقد تعبت من رؤيتها بتلك الحال . لا شيء يستطيع أن يخفف ذلك القدر الكبير من الخوف والألم الذي تشعر بهما ساندرا طوال الوقت .

كان ذلك اليوم كأي يوم أخر ، ذهب محمد لشراء بعض الحاجيات وبعد ذلك عاد إلى والدته وكانت ساندرا عند النافذة تتمنى أن تتحرك أحزانها كما تتحرك تلك الغيوم . كانت تفكر بشخصية محمد وكيف أنه مختلف تماما عن أخواته وحتى عن البقية ، يوجد مثل محمد بالطبع لكن محمد كان من اجتمعت به بهذه الغرفة ، أرى تصرفاته وأستمع لأحاديثه وكأن الله قد أرسله ليخفف قليلا مما في داخل قلبي هكذا كانت تحدث نفسها . كانت تفكر كيف أن محمد لم يكن يجادل أخواته عند صراخهن وتذمرهن ، كانت تفكر كيف أن غضبه كان راقيا حتى في تلك الأثناء.

كما أخبرتك يا صديقي أن محمد شعر بمدى الألم الذي يعتصر قلب ساندرا ولم يكن بمقدوره أن يصنع لها أي شيء سوى أن يخبرها أبيات من الشعر التي كان يحفظها ، كانت أبيات مبعثرة من قصائد عدة وكان يقوم بذلك وقت المساء وكان يرفع من صوته قليلا كي تسمع ساندرا ذلك وقد يكون في تلك الأثناء قد جاء عامل النظافة أو تأتي ممرضة ما وكانوا يستمعون لمحمد أيضا . كان محمد يكسر بذلك الملل والحزن الذي تخلل الجميع . فعامل النظافة يبدو عليه التعب والإرهاق الشديدين والممرضة يبدو عليها الملل من حمل تلك الأجهزة المعتادة وكتابة الملاحظات في بعض الأحيان بالنسبة لطاهي الطعام فكان يقدم وجبة العشاء مستبشراً إنتهاء اليوم وكان في الحقيقة رجل رائع كان يقدم الطعام بكل بهجة وكان يمزح في كثير من الأحيان أما بالنسبة لنا نحن فكان محمد يكسر الخوف والألم ، الحزن والإرهاق كله دفعة واحدة دون ملل.

كان يقول محمد في ذلك المساء : لا أتذكر قلبي إلا إذا شقه الحب نصفين أو جف من عطش الحب .

كان يقول لأمه:الليل يا أماه ذئب جائع سفاح يطارد الغريب أينما مضى ثم عاد بعد ذلك ليقول أقواله في الحب فيبدأ ويقول :

حين عطشت طلبت الماء من عدوي ولم يسمعني فنطقت بإسمك وأرتويت كان يقول أيضا وما أجمل الصدفة إنها خالية من الإنتظار. وغير ذلك من الكلام الكثير يا صديقي. كان محمد بتلك العبارات يرسل رسائله إلى ساندرا ، كانت رسائل صوتية مبعثرة ، متقطعة ، قد يأتي أحدهم ويوقفه من شدة الإزعاج أو قد تكون أحيانا والدته حينما تطلب أمرا ما إلا أن ذلك كان بالنسبة لساندرا من أجمل الأيام في حياتها في المشفى، يكفي أن محمد قد إستعمل أقوال صديقه كي يخفف من وحشة وألآم من بدأ بسببها يدخل الحب قلبه. كان محمود درويش أيضا صديق لساندرا دون أن يعلم محمد .

أكبر تنازل تقدمه في حياتك هو أن تتأقلم

كان محمد يلقي بعبارة محمود درويش هذه أمام ساندرا كثيرا، ربما كان ذلك بسبب حزن ساندرا وغضبها في أن واحد. في تلك الفترة إزداد ألم والدتها وشعورها الحقيقي بالتعب والإرهاق وقد كان الألم مستمرا وكانت متعبة جدا وكانت ساندرا تشعر بتعب والدتها وحزنها وكان ذلك يرهق كاهل ساندرا . في يوم من الأيام وفي الصباح، في الساعة العاشرة بالتحديد جاءت مسؤولة التنظيف إلى الغرفة وقالت لمحمد وساندرا أنه يتوجب عليهما الخروج لإنها تريد القيام بعملها ، فخرج كليهما فجاء محمد وبدأ يحاول الحديث مع ساندرا وكما أخبرتك أنها قد كانت شديدة الغضب والحزن في تلك الأوقات .

أخبر محمد قصته في البداية وأنه قد خسر والده بمرض السرطان ولم يكن يعلم هو بمرض والدة ساندرا ولكنه بدأ يتحدث عن نفسه عله بذلك يخفف من ألم ساندرا الشديد. أخبرها عن معاناة والده وكيف أنه قد توفي، أخبرها كم كان حزينا لذلك ولكنه يرى أن ذلك هو الأنسب والأفضل له قال لها : لماذا أكون أنانيا ، لماذا أريده أن يبقى لأنني أحبه ولكن لا أحد يدرك صعوبة مرضهم وألمهم الشديد . فأصبحت أتمنى له أن يتوفى فذلك أرحم له وأجمل له من البقاء والعيش معنا ، بالفعل هو أمر صعب جدا علي ولكني لم أستطع يا ساندرا أن استمر برؤيته بتلك الحال ، حبي الشديد له جعلني أتمنى إنتهاء ذلك كله . أعلم جدا حقيقة ما تشعرين به فقد كنت مثلك ، مررت بهذه الحال ولذلك أنا أعشق ما تلامسه قدما أمي حتى . عليك بالصبر وأن تكوني قوية مهما حصل كي لا تكسري بسهولة . لم تتحدث ساندرا ولا حتى بكلمة صغيرة ، هي لا ترغب أن تشعر بحقيقة أنها ستفقد والدتها لا محاله ، كانت والدتها تعني لها كل شيء ، كانت الكون بأكمله . علينا أن لا نلقي أي تكهنات عن عزيزتنا ساندرا ، كل ما في الأمر يا صديقي أنها لا تستطيع أن تتصور عالما بدون سماع صوت والدتها وضحكاتها .

شعرت ساندرا بعد ذلك الحديث أنها قد كانت قاسية على محمد ، وذلك بعدما إنتهى محمد من حديثه عاد إلى الداخل ولكن قبل دخوله قال لها : إن أكبر تنازل تقدمه في حياتك هو أن تتأقلم . كان محمد بهذه العبارة قد إختصر الكثير من الحديث ، أرسل رسالة فحواها الكثير ولو جلست أنا وأنت نفسرها وفقا لما يحدث معهما لفسرنا الكثير . محمد كان يعلم ويشعر أن ساندرا تمتلك ذكاء وفطنة عالية من عدة مواقف كانت تحدث مع الأطباء والممرضين ومن حولهم وكان محمد شاهدا على روعتها ودقة ملاحظتها وكان يراها في المساء تقرأ كتبا وروايات . كان يرى بساندرا كل شيء لكن ساندرا لم تعلم ذلك والسبب يا صديقي لسوء حالها وحال والدتها وليس لقلة ذكائها وإنتباهها لكن ما كان يحدث مع والدتها جعلها لا تهتم لأي شيء أخر .

ولكن مع كل ذلك فقد علمت ساندرا ماهية الرسالة التي يريد محمد أن يرسلها لها . كانت ترى أن محمد مخطئ في أمر ما الأ وهو أن فقد الأم أصعب بكثير من الأب ربما كان ذلك بالنسبة لساندرا وقد يكون ذلك مختلفا بالنسبة لمحمد أو حتى لكل واحد منكم . فقد تكون علاقتك أكثر مع والدك وليس مع أمك وهكذا . لكن ربما ساندرا أقرت ذلك في داخلها ليس فقط لأن علاقتها بوالدتها اكثر قوة ربما لأنها ترى أن الأم تشارك الفتاة في كل شيء، في حبها، في زواجها ، في تقديمها للحنان الذي تحتاجه الفتاة في كل لحظاتها .

كانت ساندرا في تلك الفترة تجالس والدتها ولا ترغب بالإبتعاد عنها ، كانت والدتها متعبة جدا إلا أن ساندرا كانت تظهر قوة خارجية هائلة لكنها يا صديقي كانت كقطع متناثرة ، هي لا تريد أن تشعر والدتها أنها مريضة جدا ووضعها سيء ، هي تريد أن تزرع الثقة داخلها بأنها لا تعاني من خطب شديد ، إنما أمرها كالبقية . كانت ساندرا هشة من الداخل ، تتصارع مع نفسها دون علم أحد ، كانت كمن تعصف الريح بداخله وكأنك تستطيع سماع صوت الرعد أيضا والأصعب أن كل ذلك يحدث بداخلها في حين أنها تبدي شيئا أخر لوالدتها ولمن حولها حتى لمحمد . كان محمد يشعر بمدى القهر والألم الذي يتداخل في شرايين ساندرا لكن لا أحد ولا حتى هو يستطيع أن يبدل مشاعر ساندرا تلك فالألم أحيانا لا بد أن يعاش ويتعايشه المرء فللألم قوة لا بد أن نشعر بها

ولكن القوة أن لا نعطيه أكثر من المدة المقررة له . شعور محمد بألم ساندرا كان عن تجربة مشابهة قد مر بها عدا عن أن محمد يبدي حبا وإعجابا خفيين . إذا أردت شخصا يعلم حقيقة ألمك مئة بالمئة ، أن أعلم ان هناك من يشعرون بألمك او بمرضك ، هذا شيء طبيعي لكن حينما تريد مشاعر حقيقة، قوية ، يعلم صاحبها حقيقة ما أنت به ، عليك إذا بشخص قد مر أو يمر بما أنت تمر فيه . سأخبرك فقد يتداخل الأمر عليك هنا إن البشر يا صديقي يصنفون لأنواع عدة : هناك نوع لا يملك أدنى إحساسا بالإنسانية ، أهدافه ومبادئه متبجلة بأشياء مادية لا أكثر ، هو لا يكترث بأي شي سوى نفسه. وهناك صنف أخر يبادلك إحساس الشفقة والحزن دون أن يحاول مساعدتك بأي شيء حتى لو كنت بموقف يستدعي العون . أما الصنف الأخر فهو الذي يشعر بإنسانيتك ولا يكتفي بالنظر بل يقدم كل ما يستطيعه . وهناك صنف يتمتع بالإنسانية الشديدة وحينما يمر بموقف مماثل فهو يعلم حقيقة ما يمر ويشعر به ولا يكتفي بالنظر حتى لو كانت قدرته إلقاء كلمات معينة قد يكون لها قدر كبير في التغيير في من قد ألقت إليه .

كان محمد من ذلك الصنف الأخير كان شديد الألم ، فرؤية ساندرا ووالدتها بتلك الحال كانت قد أعادت له الكثير من الذكريات التي يحاول الهرب والإبتعاد عنها، كان يحاول دائما مساعدة ساندرا بما يقدر عليه . لم تعلم ساندرا حجم الألم الذي في صدر محمد والذي يضغط عليه بإستمرار كي لا ينمو كثيرا . كان محمد يعلم ماهية مرض والدة ساندرا عن طريق قراءته للأوراق التي توضع على الطاولة قرب سرير المريض ، فقد إستغل خروج ساندرا في أحد الأيام مع والدتها وكان لا يرغب بسؤال ساندرا عن ذلك لأنه يعلم أنها قد تحزن أكثر أو أن يرفض كبريائها إجابته، كانت شخصية ساندرا غامضة قليلا يا صديقي. علم محمد بمرض والدتها ولم يبدي لساندرا أنه يعلم حقيقة مرضها إلا أنه كان يلقي بتلميحات معينة بناءاً على ما يراه وما قد أصابه في السابق . كان محمد يخبر ساندرا أنه سواء أكان الشخص مريض أم لا ، إذا جاءه الموت فذلك لا مفر منه. وأن مرض والدتها الشديد هو رحمة من الله وكأن الله يعلم أحباءه أن الفراق قد يحين في أي وقت وأن يكونوا على إستعداد لذلك .

سأخبرك أمرا لا بد منه ، الكثير من المرضى يتعرض للعلاج ويشفى وتعود حياته إلى سابق عهدها ، ولكن هناك من يتعرض للعلاج وحالته تبدأ بالتدهور أكثر من السابق . المرض يا صديقي ليس سبب الموت و الموت يا صديقي لا تصده الصحة أو المرض، الموت يأتي حينما يريد الله ذلك ، معظم الأديان على هذا الكوكب من الإنجيل إلى القرأن إلى التوراة كلها تصب في هذا المعنى . لقد أتينا على هذا الكوكب لنقدم أفضل ما عندنا وجميعنا سيرحل ، لا أحد سيكون باقيا إلى الأبد . ستموت في النهاية حتى لو تجاوزت المئتي عام . هؤلاء الأبطال الذين يقبعون خلف الجدران يعلمون ذلك، فعلا يا صديقي حتى أنني تعلمته منهم .

كن على علم ويقين يا صديقي أنهم أصحاب عزيمة وقوة ولو أن هذه القوة إجتمعت في جيوش الدول لكانت دول لا تهزم أبدا . حاول أن تكون مثلهم ، فإذا كانت مصائب الحياة تعيقك وتجعلك ترتطم بالأرض وتسقط ، عليك أن تقف من جديد وأصرخ أمام نفسك وقل أنا لن أستسلم ، أنا لا أهزم أبدا . قل لنفسك كيف أقبل الهزيمة وهناك من يصارعون المرض والموت في أن واحد ولا يقبلون السقوط. إجعل في صباح كل يوم جديد ، هدفا وروحا جديدة قادرة على تخطي جميع العقبات . أنت صحيح في جسدك ، لذلك كن صحيحا ، معافيا في قلبك وعقلك ، في فكرك وروحك وستصنع المستحيل ، ستصنع ما كنت تراه مستحيلا . أنا أعدك بذلك ، أعدك بذلك فعلا .

هل ستواجه أعظم مخاوفك

قوتك العظيمة وشجاعتك التي تحتويك قد تكون محاطة ببعض المخاوف التي تعتريك منذ زمن أو منذ الأن. ستواجه تلك المخاوف وستنتصر عليها ، لن يكون بالأمر الصعب ولا بالأمر السهل ، لكن كن على يقين أن قدرتك على المواجهة ستظهر . تلك المخاوف سواء أكانت صغيرة أم كبيرة هي لم تتواجد لتكون عائقا بل لتكون طريقا نحو التخلص مما يعيقك وأنت لا تدري .

سنعاود الحديث عن محمد وساندرا يا صديقي. كانت ساندرا بعد مرور ذلك الوقت الممتلئ بالخوف والغضب يزداد إعجابها بمحمد ولكنها لا تستطيع أن تبوح له بذلك أو حتى أن تشعره بذلك ربما كانت في داخلها تؤمن بأن الحب كالمصيدة وحينما يظهر الحب نرى ضوَّه ولا نرى ظلاله. كانت قراءتها الشديدة للقصص والروايات بالإضافة إلى رغباتها وقدراتها في إستكشاف الناس من حولها ، جميع تلك الأمور كانت سببا لذلك . هي لا تكره الحب أنت تعرف ذلك منذ البداية يا صديقي ، لكن كل ما في الأمر هي خائفة أن تقع في ذلك الحب الذي قد يسبب لها الألم بعد ذلك . كان محمد يحاول وبشدة مع ساندرا ، يخبرها عن مدى صدقه وصدق رغبته وأن ما تريده هو الذي سيحصل وبالكيفية التي تريدها إلا أنها كانت تقول له : أخاف أن يكون حبنا أعمى يا محمد فلا أستطيع أنا أو حتى أنت أن نسيطر عليه . الحب يا محمد قد يجعلني أرى عيوبك وأخطائك محاسنك ومناقبك والأمر كذلك معك ، فنسقط في مجار الحب دون أن ندري .

كان محمد يجيب ساندرا على تلك الأشياء التي كانت تقولها له ، كان يخبرها أن ما تقوله هو صحيح ولكنها قامت بتعميم الشيء على الأوجه كافة. كان محمد يخبرها : أنه لولا الحب لما أستطاع الكون أن يزدهر ويكبر ، لولا الحب لما رأيت الشجر يكبر ويعطي أجمل وألذ ثماره ، لولا الحب لما رأيت العصفور يشذو الحانه ، لولا الحب لما رأيت والدك تتساقط دموعه حينما يجالس والدتك ، لا تلعني الحب ولا تشككي فيه . كوني على علم يا ساندرا أن الحب قد يشوه، يشوه حينما نقول أنه لم يعد هناك أي حب جميل ، وأن الحب ملوث، كله كذب، خداع ومصالح حتى الزواج قد يكون قائماً على ذلك ، لكننا نقتل الحب حينما نعمم هذه الأفكار ،

حينما نجعل أولئك الذين يتصرفون تحت شعاره ويقتلونه ويدنسوه ، علينا أن نحارب نحن أيضا حتى نظهر كم هو الحب جميل ، كم أن الحب بعيد عن كل تلك التصرفات والشعارات الواهية . سأخبرك يا ساندرا أنك قد أسرت قلبي ، لدفء قلبك ، لعفويتك ، لجمالك،لرقتك وقوتك التي أراها متزامنة مع بعضها . الصدف جميلة ، جميلة جدا يا ساندرا ، حينما يخبرنا القدر أنني سأجمعكما دون أن تعلما . لكن ساندرا يا صديقي أجابت محمد ولم تدعه يكمل فهي لم تعد تحتمل وكانت الدموع تتساقط من عينيها ، قالت له : أنا لا أستطيع أن أفكر بأي شيء يا محمد ولا أستطيع أن أرى أي شيء اخر، أرجوك يا محمد أريدك أن تعلم أنني لا أرغب في أن أكون قاسية إتجاهك ولكن قلبي متعب جدا من شدة ما رأيت وأرى ، حتى أن الحب أخاف أن أدخله قلبي فيقتله . قلبي حزين جدا يا محمد فكل ما أفكر فيه هو أمي وإذ ما أصابها مكروه ماذا سأصنع بنفسي ؟ .

قال لها : كوني على يقين يا ساندرا أنك ستصبحين أقوى، ستقفين من جديد وهكذا الحياة ستمضي ولن أرغمك على أي شيء ولكن عليك أن تعلمي أن قلبي سيكون معك دائما أينما ذهبت وأرتحلت ، سأذكرك بسري وبقلبي وفي أي وقت أشاء . عليك ان تعلمي أنه مهما حدث يتوجب عليك أن تكوني قوية وتتأقلمي على أي وضع وأختلاف جديد.عليك التأقلم حينما يتوجب ذلك عليك.

التنازل يا ساندرا ، أعظم تنازل نصنعه في هذه الحياة هو التأقلم حينما يتركنا أحدهم أو نتركه نحن ، حينما نفقد ما كنا معتادين عليه ، هناك فقط علينا التأقلم ، وليس علينا التأقلم بالأشياء الأخرى لدرجة التنازل عن أحلامنا، ليس ذلك ما نريده . علينا النهوض دائما ومن جديد.

إبتسمت ساندرا وشكرت محمد كثيرا وعادت إلى والدتها تفكر بكل شيء قد قاله محمد. أما محمد فقد ذهب إلى غرفة الأطباء التي في الطابق نفسه ، كي يرى ما الذي يريدونه منه، فقد أخبرته الممرضة أن الطبيب يريده وبأسرع وقت. كانت الساعة التاسعة مساءا وبعد ذلك جاء الطبيب إلى والدة ساندرا وكانت والدتها نائمة، أخبر الطبيب ساندرا أنه يتوجب عليهم أن يقوموا بنقل والدتها إلى الطابق الخامس فورا. كان خبرا مفزعا بالنسبة لساندرا وأزداد الخوف حينما رأت محمد خارجا من الغرفة غاضباً، خائفا . أرادت أن تتحدث معه وتطمئن عليه إلا أن الطبيب كان مع ساندرا وأخبر الممرضات أن ينقلن المريضة وبسرعة إلى الطابق الخامس وكان يتوجب على ساندرا أن تقوم بنقل عدة أوراق إلى مسؤولة القسم من أجل السرعة.

كان الواقع مؤلما جدا فالذي حدث يا صديقي هو أن الأطباء قاموا بإستدعاء محمد وذلك ليخبروه أنهم سيقومون بنقل والدته إلى مشفى أخر وذلك لعدم توافر طاقم طبي للقيام بعملية والدته فعمليتها يجب أن تقوم بها في مشفى أخر وأنهم سيقومون بإجراءات النقل هذه الليلة، كان محمد وساندرا في وضع سيء جدا ، كل منهما في نفس المبنى الأن ولكنه بعد قليل سيذهب كل منهما في طريق أخر، حتى أن الوقت والعجلة لم يسعفهما في توديع بعضهما . كان الأطباء قد جهزوا كل شيء وقاموا بنقل والدة محمد إلى مشفى أخر وبالطبع محمد كان برفقتها. كانت ساندرا في تلك الأثناء بالطابق الخامس تساعد والدتها وكانت والدتها في تلك الأثناء بحالة صعبة جدا. كان محمد وساندرا بحالة يرثى لها . كان كلاهما يتقطع من الداخل على ما يحصل مع والدتيهما . الإنسان في تلك اللحظات يا صديقي قد ينسى كل شيء ويفقد التركيز بكل شيء حينما يرى أنه قد يفقد أعز أحد له .

بعد مرور ساعتين عادت ساندرا إلى الطابق وإلى الغرفة التي قد كان فيها محمد ، كانت قد نسيت بعضا من حاجياتها ، وحينما عادت لم ترى محمد ولا حتى والدته ، بدأت تتساءل وشعرت بالخوف أيضا . ذهبت ساندرا إلى الممرضة وقالت لها : ما الذي حدث، أين هم من كانوا معنا في الغرفة ؟ قالت لها الممرضة : إن الأطباء قد قرروا نقل المريضة إلى مشفى أخر وكانوا على عجلة شديدة . لم تعلم ساندرا ماذا تقول ، كانت حزينة ومتفاجئة وبشدة ، لكنها ذهبت وعادت إلى والدتها وكانت تتحدث بداخلها: أن محمد صدفة وأنتهت . علي الأن العودة إلى والدتي فهي بحاجتي وبشدة .

ذهبت ساندرا لكنها لا تعلم ما الصدف القادمة ؟ وما الذي يخبؤه لها القدر ؟ هي لا تعلم أبدا ما الذي ينتظرها وسأخبركم لاحقا كل شيء .

صاحبة الأشعار وسرها العجيب

بعد خسارة ساندرا الكبيرة وفقدها تماما لرؤية محمد أو حتى معرفة أين أصبح مكانه ، أصبحت بطلتنا تخاف كثيرا، لم تعد قوية كالسابق ، وبالطبع يا صديقي فنحن لا نستطيع أن نبقى دائما أقوياء ، فهناك فترات قد تمر بها تجعلك متعباً وضعيفاً ، لكن كما أخبرتك إن ذلك لا بأس به على أن لا يستمر طويلا . يجب أن يكون مكوث الضعف والخوف والتعب ، مكوثا مؤقتا فقط . كانت ساندرا ترغب وبشدة الإعتذار لمحمد ، بعد ذهابه شعرت بأنها قد أخطأت بحقه كثيرا ، كانت تشعر بالإشتياق كثيرا لإحاديثه وأقواله التي كان يلقيها في المساء .

أصبحت ساندرا لوحدها في الطابق الخامس ، في غرفتنا السابقة 552 التي كانت معظم أحداث روايتنا فيها . بالرغم من الأسى والألم الذي يعتصر قلبها ، جاءت زائرة غريبة ، لم تكن كالزوار المعتاد عليهم . هي لم تكن مريضة ولا تشكو من أي شيء . كانت عجوزا قد تجازت الستين من العمر وكانت ممن يتبرعون للمشفى في سابق عهدها . كان ذلك مسجل لديهم فقد كانت إمراة معطاءة ، ولكن ما قصتها ولماذا تأتي إلى المشفى على الرغم من عدم حاجتها ؟

بعد مرور خمسة أيام على بقاء ساندرا ووالدتها وحدهن في الغرفة ، قدم إلى الغرفة مريضتان وأصبح مجموع من في الغرفة أربعة أشخاص ، بعد يومين فقط جاءت المرأة العجوز وأصبح العدد في الغرفة خمسة ، إذن عليك أن تعلم يا صديقي أن ذلك سيكون له بعض التأثير في تخفيف الألم عن ساندرا وعن قلبها الصغير ، فقصص بعض المرضى تجعلك أحيانا تفقد جرعة ولو صغيرة من ذلك الألم . ستعود ساندرا للحديث هنا فأنا لم أكن هناك يا صديقي إلا لبضع من الوقت ، صديقتنا ساندرا هي من تخبرك القصة الأن .

كان ذلك في يوم الخميس حينما جاءت زائرتنا غير المتوقعة دخلت هذه العجوز إلى الغرفة وبدأت تقول : مرحبا ، كيف حالكن وكانت تلك العجوز تمسك بعصا ، ليس لعجز منها فمشيها سريع . كان يبدو أن لتلك العجوز قصص كثيرة حتى عصاها لها قصتها الخاصة .

حينما دخلت تلك العجوز إلى غرفتنا وكأن إعصار قد جاء وبدل كل شيء . لقد غيرت الكثير من الأشياء كموعد إسيقاظنا ، موعد نومنا . سأخبرك من البداية كل شيء . حينما دخلت تلك العجوز لم تنتظر ممرضتها كي تأتي وتقوم لها بكل شيء ، بل قامت وجلست وحدها على سريرها وبدأت تنادي وتقولة - سيستر – تعالي يا - سيستر – كان صوتها عاليا جدا وجاءت الممرضة وحينما رأتها بدأت ترحب بها وتضحك بوجهها وكأنها تعلمها جيدا . قالت الممرضة لنا أن هذه العجوز صديقة لهم فهي لا تشكو من شيء بالفعل إلا أنها تأتي من أجل أن تطمئن على صحتها . وتحب أن ترانا من حين لأخر .

شعرت ساندرا بأن تلك العجوز تخفي أمرا ما ، وأن ما قالته الممرضة وما تقوله العجوز غير ذلك ، وبالفعل كانت ظنون ساندرا في مكانها وذلك لأن ساندرا قد رأت الكثير من الأشياء التي جعلتها تؤمن أن هناك قصة ماوراء تلك العجوز غير القصة المذكورة . ستخبرك ساندرا كل شيء يا صديقي فلا تستبق الأحداث .

سأخبرك يا صديقي أن تلك العجوز كانت تثير فضولي جدا ، كانت غريبة في كل شيء . كنت أعلم أن هناك الكثير من الأشياء التي تخفيها تلك العجوز . كانت تلقي أبيات من الشعر معظمها من العهد القديم ، كان طابع الحزن يغلب تلك الأشعار . كانت تقوم بإلقاء تلك الأشعار قبل النوم . وكأن موعد النوم هو موعد للذكريات . كانت تتغزل بشعرها الأسود الطويل الذي قد مر عليه الزمن وكان الشيب قد زاده جمالا وبهاء . كانت تتحدث عن إبنتها ، التي ساعدتها من أجل أن تكمل دراسة الهندسة المعمارية في الخارج .

كانت أمي والنساء اللواتي كن في الغرفة يحببن جدا سماع تلك الأشعار التي تلقيها تلك العجوز ، كانت تساعدهن في أن يتبدل مزاجهن ولو قليلا . كن يحببن سماع ذلك بالأخص إذا ما كانت القهوة رفيقة تلك الجلسات المسائية كنت أشعر بأن تلك العجوز تعاني من خطب ما . لقد بقيت في المشفى ومعنا في الغرفة لوقت ليس بقصير ومع ذلك لم نرى أي أحد يأتي لزيارتها . حتى هاتفها الذي كان دائما بجوارها لم يسمع له رنين ، وكأنني كنت أشعر بمدى رغبتها في سماع أي أحد يتصل بها ، شعرت بذلك من كثرة رؤيتي لها وهي تمسك بذلك الهاتف .

كنت أحزن لذلك وكنت أرغب في معرفة لماذا كانت أقوالها معاكسة كثيرا لما كنت أراه وأسمعه . كانت تتحدث عن مدى سعادتها وعن حياتها الجميلة ، ولكن كانت تتصرف وكأن الألم يصادقها ، ولا ننسى أشعارها الممتلئة بالحزن أيضا .

كانت النساء حولها يطرحن عليها أسئلة لماذا لا أحد يأتي ليزورك؟ أين هم أبناؤك؟ لم تكن تجيب على تلك الأسئلة، كانت تلتزم الصمت ، الصمت الذي يملؤ كيانها والذي قد أعلن إنتهاء قدرته على الإكمال وخرج ذلك الصمت عن عادته قبل موعد الرحيل بيوم .

جاء الطبيب إلى تلك العجوز ، أخبرها أنها تستطيع العودة إلى المنزل ، ولكن الغضب والحزن قد ظهر أخيرا في كلماتها ، ذلك هو ما كنت أرغب في معرفته ، عجوز ذات فضل ، كانت ممن يدعمون المرضى وأصبحت الأن أحد النزلاء دون داعي ، لماذا ؟ ولماذا كان الحزن يبدو عليها ؟ ولماذا غضبت حينما أخبرها الطبيب أنها تستطيع الأن الذهاب والعودة إلى المنزل ؟ كنت أرغب وبشدة معرفة قصتها. لم يستطع أي أحد التحدث معها فقد كانت شديدة الغضب حتى جاء المساء ، كان المساء هو موعد إنفجار البركان الذي كان بداخل تلك العجوز . دق هاتف العجوز في المساء ولأول مرة وحينما أجابت على الهاتف بدأت بالصراخ وتنطق بكلامات كان معظمها يتجلئ في التأنيب والعتاب . قالت العجوز على الهاتف هل تذكرتي أمك الأن ؟ إبتعدي عني . هنا علمت يا أصدقائي أن هذه العجوز تعاني من خطب ما ، شعرت بقسوة الحياة عليها . بدأت بالبكاء بعد حديثها على الهاتف ، حاولنا جميعنا تهدأتها والتخفيف عنها ، أمسكت بيدها وإذ بدموعها تتساقط على يداي . لم أعلم كيف أساعدها ، فأنا حتى الأن لا أعلم ما خطب تلك العجوز .

لم تستطع تلك العجوز أن تخفي أكثر من ذلك ، بدأت تتكلم بصوت عال ، بحزن شديد . أخبرتنا قصتها وهي تتلعثم بالكلام . كانت هذه الإمرأة العجوز قد ورثت الكثير من المال ، فقد كانت وحيدة أبويها ولم يكن لديها أي أخوة . قالت بأنها قد تزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد . فتاة وولدين ، وأنها قد فقدت زوجها منذ صغرها ، فقامت بتربية الأولاد والإعتناء بهما وحدها . حينما كبرت أبنتها ، قررت أن تساعدها كي تدرس في الخارج وبالفعل ذهبت الفتاة حاصلة على درجة الماجستير في الهندسة المعمارية وقامت هذه الفتاة باخذ مال إضافي بعد عودتها من أجل ان تقوم ببناء منزلها الخاص ، وقد كانت الأم شديدة العطاء ولكن مع فتاة جاحدة . بعد ما أن قامت الفتاة ببناء منزلها الخاص بالطريقة التي تريدها هي ، تركت والدتها ولم تقوم بزيارتها ولا حتى أدخلتها بيتها حينما جاءت إليها ، وإذ كانت تدق على هاتف العجوز ، قد كان ذلك من أجل الحصول على المال . على ما يبدو أن تلك الفتاة تعشق المال إلى حد الجنون . قالت تلك العجوز أنها لم تعد تقدم لها أي سنت من مالها وذلك لنكران أبنتها لكل شيء قد صنعته معها ، ولكن الفتاة غير أبهة بما قامت وتقوم به ، فهي لا ترى أمها على أنها أم وإنما ترى أنها بنك للمال .

طرحت عليها سؤالا ، قلت لها : أين الشابين الأخرين ، إذا كانت الفتاة هكذا . لماذا لا يساعدك ولداك الأخرين. قالت لنا أن أحدهما قد ذهب للخارج ولم يعد ولا تعلم من أخباره شيء وأن الأخر فقصته مشابهة للفتاة ولكنه أشد قسوة . هذا الشاب يعيش في بيت له وكانت المرأة العجوز هي من أعطته المال وكان كلما طلب ، كانت تقدم له وتعطي وحينما وجدته شابا طائشا ، ويبذر هنا وهناك أخبرته أنه لم تعد تريد أن تعطيه أي شيء . فكان يصنع كالأتي ، حينما تضيق حاله ولا يعلم من أين يحصل على مال كثير دون تعب ، كان يذهب إلى أمه ويطالبها بالمال وكانت ترفض ذلك وبشدة، و كان من شدة قسوته يقوم بضربها حتى تقدم له المال وكانت للأسف تقوم بذلك حتى أنه قام بأخذ المنزل الذي تعيش فيه ، فقد كان منزلا فخما للغاية ، ويرى أبنها أنها ليست بحاجة إليها وأخرجها من المنزل ولم يفكر بها وأين ستذهب . كان ذلك لا يعنيه ، ذهبت إلى إحدى صديقاتها القديمات وبقيت عندها حتى اليوم التالي . كانت العجوز في اليوم التالي قد ذهبت إلى منزل والدها ، بيت كان قد إدخره لها ولم تكن تسكن فيه العجوز إلا أنها كانت قد حافظت عليه وحينما إحتاجته ذهبت إليها .

قد تتساءل مثلي يا صديقي ، لماذا لم تذهب العجوز وتشتكي للشرطة . ستقوم أجهزة الأمن بمساعدتها وإرجاع حقوقها التي كان من قد سلبها إياها فلذة أكبادها . أخبرتنا أنها لم ترغب بذلك كي لا يصبح أبناؤها على ألسن الناس وحديثهم الدائم ، كانت تحبهم إلا أنهم كانوا يضربونها كل يوم ولا تعلم ما الذي يستوجب ضربها وتعذيبها؟ وبلا سبب؟

حتى نحن يا صديقي لم نعلم ما هو السبب الذي قد يدفع هؤلاء الشبان لصنع ذلك مع الإنسانة التي كانت أكثر من أم ، التي قدمت لهم الكثير ، و لم تبخل عليهم يوما . ما السبب الذي قد يدفعهم للقيام بذلك . هل أصبحنا كالذئاب ؟ ألم يعد للوفاء معنى ؟ ألم يعد للأم مكانة ؟ كيف استطاعوا أن يقذفوا السم في طعام من قام بإرواء عطشهم .

لقد علمتني تلك العجوز أمرا هاما ، ألا وهو أنه لا يجب على المرأة أن تنسى نفسها ، عليها دائما أن تعطي نفسها الأحقية في التفكير وفي كل شيء . كان يتوجب على تلك العجوز أن تترك بعضا من المال الذي تملكه لها . كان يتوجب عليها أن لا تنسى نفسها وتضحي بكل شيء من اجل أبنائها . يجب على المرأة أن لا تنسى ذلك ، يجب أن يبقى هناك نصيب لها في كل شيء . لماذا تنسى وتتناسى نفسها ؟ من أجل ماذا ؟

حتى لو كان زوجا أحبه ، حتى لو كانت عائلة تحبينها ، حتى لو كانوا أبناؤك، أنا لا أقول لك بأن تبخلي عليهم ! لا إن ذلك ليس ما أقصده .إن ما أقصده هو أنه يتوجب على الإنسان دائما أن يقدم لنفسه نصيبها من الحب والإهتمام ، أن لا ينسى نفسه . كن معطاءا ، كن مضحيا إذا أردت وإذا رأيت من يستحق لكن لا تضع نفسك في الجحر وتنسى نفسك ويأتي الزمن ليتبدل ويتغير، فلا شيء يبقى على حاله ، وحينما تحتاج نفسك يا صديقي فإنك لن تجدها . هذا الأمر سيكون سببا في مقتلك ولن تعلم ذلك إلا حينما تحتاج نفسك يا صديقي .

عليك أن تعلم يا صديقي أن القوة لا تعني الخداع ، الصبر لا يعني الهزيمة ، المرأة لا تعني الكيد ، والرجل لا يعني أن يكون ذئب . إن العناوين لا تعني رؤوساً للأقلام والكلام لا يعني أنه الشرح دائما . كن على العهد الذي بينك وبين نفسك أن لا تكون الخاسر مهما حصل ، وأن تقف دائما مهما حدث .

كن قويا أنت أيضا أيها القارئ فسوف يأتيك الكثير ، ما زال هناك حديثا سأخبرك به ، نحن لم ننتهي بعد نحن ما زلنا في البداية فقط .

الموت لا يزهق أبدا

حاول الأطباء على مر العصور قهر المرض ودفع الموت ، وتمكنوا من دفع المرض قليلا ، أما الموت فلم يزل اللغز الأكبر .

كان ذلك في مساء يوم السبت بتاريخ 7 /10 / 2015 ، في الساعة الثالثة صباحا ، في ذلك الوقت شعرت ساندرا أن والدتها لا تستطيع التنفس ، حاول الأطباء وأستخدموا جميع الوسائل الممكنة ، إلا أن دقات القلب لديها بدأت بالإنخفاض وكانت تنخفض بطريقة عجيبة . كانت النبضات تنتقل من مستوى إلى مستوى أخر وبسرعة ملحوظة جدا ، كان أمرا في غاية الصعوبة بأن ترى ساندرا كل ذلك ولوحدها ، لم تستطع أن تتصل بأي أحد ولم تستطع أن تنظر حتى إلى ساعة يدها ، كانت تعلم أنها لن تستطيع تغيير أي شيء الأن ، ولا يمكنها أن تبدل أي شيء، كانت تكتفي بالمراقبة والأسئلة تتفاقم في داخلها ، كان السؤال المسيطر عليها في تلك الأثناء هو : هل ستموت والدتي هكذا أمام عيني دون أن أتمكن من توديعها ، حتى أنها غير مدركة لما يحصل حولها ؟.

أصبحت ساندرا في خوف شديد ، نظرات الاطباء كانت تفيد بأنها النهاية على ما يبدو . بدأت والدة ساندرا في تلك الأثناء تنطق بإسم صغيرتها ، وطلبت منها رشفة من الماء . ظنت ساندرا أن والدتها سوف تتحسن ، لم تكن تعلم أن لحظات التحسن هذه قد تخبئ شيئا أخر لا تعلمه أنت تعلم يا صديقي من هو الذي يحدثك الأن ، بالطبع أنها هي التي تحدثك ، بطلتنا سمحت لي بأن أخبرك هذه الحكاية ، كن على يقين أنني سأرويها كما هي . بدأت ساندرا يا صديقي تطرح أسئلة على والدتها كأن تقول : هل أنتي بخير يا أمي ؟ هل تشعرين بشيء ؟ أجابت والدتها نعم أنا بخير . لقد كانت أم ساندرا كما عهدناها إمرأة طيبة، حنونة وقوية ومع أنها بحالة سيئة ، إلا أنها لم ترغب أبدا في أن تخيف أبنتها أو أن ترهق قلبها الصغير، لقد عمدت إلى تلك الإجابة ، رغبة منها في تخفيف الألم عنها ، رغبة منها في أن تشعر أبنتها بنفحات من الأمل ولو كانت بسيطة .

قالت أم ساندرا موجهة كلامها لساندرا : أريدك قوية دائما كما عهدتك . كانت تتحدث بالرغم من عدم قدرتها على الكلام ، كان صوتها متقطعا إلا أن ساندرا إستطاعت معرفة تلك الكلمات . لم تكن إلا بضع دقائق وإذ بساندرا ترى شيئا مرعبا بحد ذاته ، لقد بدأت دقات قلب والدتها تنخفض وبشدة وترتفع أيضا وكل ذلك بسرعة هائلة ، هرع الأطباء إلى المكان ، وأخرجوا ساندرا من الغرفة بأكملها ، كان ذلك جانبا إنسانيا عظيما منهم فقد رفضوا حتى إقترابها من الباب بحد ذاته . حينما خرجت ساندرا كان قلبها يخبرها بإن المعركة ربما قد حان موعد إنتهائها .

إبتعدت ساندرا عن الغرفة بأكملها ، كانت لا ترغب برؤية أو بسماع الحقيقة التي يخبرها قلبها بها ، بل التي كان يمهد لها محمد . كان الصراخ يملئ الغرفة فذهبت ساندرا كي ترى ما القصة وإذ بها تجد والدتها تصعق بالكهرباء وكان جسدها يصعد تارة وينزل أخرى، إقتربت من الغرفة وإذ بأحد الاطباء يصرخ عليها . إبتعدت ساندرا قليلا وبعد ذلك كانت قد رأت الأطباء يخرجون من الغرفة ، كانت وجوههم تخبر كل شيء، تخبر ساندرا أنها تستطيع الدخول فالرحلة قد إنتهت. قامت ساندرا بالدخول إلى الغرفة ورأت ذلك المشهد ، الذي عاهده به قلبها أنها لن تنساه، كانت والدتها قد فارقت الحياة وحينما رأتها ساندرا، وقفت بجانب سريرها وأستمرت بتلك الوضعية، تنظر إلى والدتها وكأنها قد دخلت إلى عالم أخر ، عالم غير حقيقي . شعرت ساندرا حينها وكأنها أمام لوحة من لوحات أرتميسيا ، التي تشعرك أن الذات قد فقدت الأن .

جاء الأطباء كي يخرجوا والدتها من الغرفة ويقوموا بوضعها في ثلاجة الموتى ، كانت ساندرا تصطدم صدمات متكررة ، إحداها تلوى الأخرى، لم تستطع الكلام أو حتى الرد على أسئلة الأطباء، لم تستطع النظر وكأنها ترى وهما بحد ذاته. كان والدها وإخوتها حتى أصدقاء والدتها قد أصبحوا في المشفى ، ولكن ساندرا لم تستطع التعرف عليهم . كانت تشعر بأنها قد تعرضت للخيانة والغدر من قبل الجميع، من قبل الأطباء، من قبل والدتها التي أخبرتها أنها بخير ثم ما أن إستدرات فوجدت أنها قد ذهبت وغادرت .

رأت ساندرا كل شيء ، رأت المرض والمعاناة ، شاهدت التعب والحزن ، رأت الموت بأم عينها ، رأت والدها والجميع يبكون إلا هي . هل هم يعلمون الحقيقة أما أنا فلا؟ ما القصة ؟ لم تستطع ساندرا أن تدرك أي شيء مع هول الموقف إلا أنها لم تنم لعدة أيام ، إختلط عليها كل شيء ، رغبتها بالنوم والشعور بالراحة ورغبتها في معرفة هل ما زالت في الحلم أم ماذا ؟

أعذروني يا أصدقائي فأنا لا أرغب بالحديث أكثر عن تفاصيل الوفاة وما يرتديه المتوفي وكيف كانت الجنازة . نحن نعلم كل ذلك ونعلم ما يحصل فلماذا أخوض بهذا الحديث أكثر ؟ من كان معنا وسندا لنا، قد جاء وقته وأرتحل، نحن لا نستطيع منع ذلك ، ومن نحن لنعترض ونرفض ذلك ! نحن مخلوقات الله في الأرض هو من خلقنا وهو الذي يقرر متى يكون موعد رحيلنا ولقائنا معه .

الشخص الذي لا يبكي في البداية ولا يظهر ألمه ، هو أكثر شخصٍ من بين الجميع يتألم وبشدة لكن بصمت وحينما يأتي موعد الإنفجار الأكبر قد تصدم لرؤيتك له بتلك الحال. هذا هو الأمر الأشد صعوبة في كل شيء . لم يكن المرض سبب الرحيل، بل كان اللقاء هو سبب الرحيل، ونحن لا نستطيع منعهم . علينا أن نلتزم الصمت، كي لا نخون أنفسنا ، فنحن لا نعلم متى يكون رحيلنا أيضا ومتى سيكون موعد لقائنا القادم .

أنا أعلم أنه ليس بمقدور أي أحد أن يخفف الألم عن ساندرا ، حتى أنا لم أستطع أن أساعدها بأي شيء ، نحن لا نستطيع أن نقدم لهم في تلك الأثناء سوى الصمت، فمن هم كساندرا ما زالوا يبحثون عن حقيقة ما رأوا وكيف حصل؟ وما السبب؟ ففي هذه اللحظات يصبحون تائهين، يرغبون في مواساة أنفسهم بأنفسهم وبالطبع بعد دخولهم في مرحلة التصادم مع الواقع ، فهم الأن ما زالوا لا يصدقون ما قد رأوا .

بالنسبة لساندرا فصديقتنا لم تعد تعلم ما الذي يحصل معها وما أسبابه ؟ لقد أخبرتك يا صديقي أن إقترابنا من النهاية هو مجرد بداية . لقد وصلت بطلتنا إلى مرحلة قد فقدت فيها معنى الذات ولم تعد ترى أي أهمية لهذه الحياة، فإذا كانت نهايتنا هي الموت ، لماذا أستمر ؟ كانت تتسائل الكثير من الأسئلة والتي كانت قريبة من هذا النوع. كانت تخبر صديقتها الممرضة التي كانت معهن في المشفى: ما هو الجميل ؟ أخبريني ما هو الجميل حينما تتحول الخلية الطبيعية في أجسادنا لتصبح خلية قاتلة ولا تكتفي بذلك بل تزيد من أعوانها لتدمر الجسم بأكمله . ما الجميل إذن في هذه الحياة ؟ كانت ساندرا في الواقع يا أصدقائي ضد هذه الأفكار فأنت تعلم الإجابة عن أسئلتها هذه في بداية حديثنا ، نعم عد للبداية ، ولكن ساندرا غائبة عن الوعي لا محالة. كان الحزن يأسرها ويأسر أفكارها جميعا . علينا أن نكون أقوياء مهما حصل ، علينا الوقوف مجددا رغبة في حماية أنفسنا ورغبة في أن نبقى كما عهدنا من رحلوا. أنت لست وحيدا، أنت تملك كل شيء لكن عليك أن تبصر ذلك يا صديقي .

علينا أن نلتزم بأحاديث صديقنا محمود فقد قال يوما :

نحن الضحية التي جربت فيها كل أنواع القتل ...... حتى أحدث الأسلحة لكننا الأعجوبة التي لا تموت ولا تستطيع الموت .

هذا يجب ان يكون بالفعل حال الجميع من بطلتنا ساندرا حتى إليك . كن قويا أنت أيضا يا صديقي .

ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر إنكسارها

الذئب يا صديقي لا يستطيع البقاء وحيدا إلى الأبد، لا بد أن يظهر الأشخاص المناسبون في الأوقات المناسبة ، أنت لن تبقى وحدك أبدا. وبعد أن تبدأ نيران الغضب، الحزن والحقد والشعور بالغدر، حينما تبدأ جميعها بالخمود ستعود من جديد، تقف من جديد مرة أخرى دون أي تردد. فسقوطك الأول، علمك أنك تستطيع الوقوف مجددا مهما حصل.

ساندرا عادت لنا من جديد ، تريد الوقوف مرة أخرى بعد إنكسارها. وبعد مرورها بكل تلك الأزمات عادت لنا من جديد ، مصدرة عدة قرارات بحق ذلك التغيير . تريد أن تكمل دراستها في مجال الأبحاث الطبية وقررت أن تكون دراستها في بلد أخر، حتى تحصل على أفضل النتائج. قامت بالتسجيل في إحدى الجامعات وحصلت على الموافقة الجامعية وبالطبع غادرت ساندرا البلاد. في سفرها ذلك، كانت قد حصلت الأعجوبة من جديد، كان في الجامعة التي قد حصلت ساندرا على مقعد فيها، صديقنا محمد كان هناك. كان في الجامعة ذاتها التي ذهبت إليها ساندرا. ولقد كان في تلك الجامعة قسم للطلاب الأجانب، وكان ذلك القسم مهيئاً للطلبة القادمين من الخارج ويقوم هذا القسم على تقديم المساعدة للطلاب وتعريفهم بالجامعة وشروطها. ذهبت ساندرا إلى ذلك القسم ، كونها طالبة جديدة هناك وليس لها خبرة بأي شيء. دخلت إلى ذلك القسم وحينما كانت تبحث على ضالتها ومن يدلها على قسم الدفع ويساعدها في ذلك ، كانت قد وجدت شخصا مألوفا إليها ، لقد كان محمد. لقد شعرت أنها مخطئة وربما هو شبيه له إلا أنها ذهبت وأقتربت، نظرت وسألت، هل أنت محمد ؟ قال لها نعم أنا هو محمد، لقد عاد القدر يا ساندرا مقررا أن يجمعني بك مرة أخرى.

لقد كان أمرا غريبا وعجيبا جدا بالنسبة لساندرا، فقد كانت مذهولة جدا حينما رأته. قال محمد لساندرا لا تتعجبي ألم أقل لك أننا سنلتقي مرة أخرى وذلك لأن لقاءنا الأول كان صدفة والأن فإن لقاءنا الثاني أثبت أن كل ما يحدث معنا ليس صدفة، إن القدر يا ساندرا يرغب دائما ان يجمعنا سويا.

قالت ساندرا لمحمد: أعلم أنك قد قلت ذلك وأنا اعتذر منك على ما قد بدر مني حينما كنت أتجاهل أقوالك، كل ما قلته كان صحيحا. كيف حالك؟ وحال والدتك يا محمد؟

قال لها: أنا بخير ووالدتي كذلك ولقد إنتقلنا هنا كي تتمكن أمي من إكمال علاجها ولكي أتمكن أنا من إكمال دراستي في مجال الهندسة الكهربائية. وأنت يا ساندرا أخبريني كيف جئت إلى هنا ؟ هل قدمت مع والدتك أيضا؟

قالت وبنبرة حزينة لقد قدمت هذه المرة لوحدي، لم أعد رفيقة والدتي، لقد أصبحت أمي رفيقة لمن في السماء. حزن محمد لذلك ولكنه أخبرها أنها ليست وحيدة، هي بجانبه وهو لن يتركها مهما حصل. شعرت بفرح وببهجة لأول مرة منذ مرض والدتها وحتى وفاتها. تزوج محمد من ساندرا وقام كل منهما بالوقوف مع الأخر. قررا ذلك بعد أن جمعهما القدر مرتان، وكأنه يخبرهما لا مناص من الأمر، قررا ذلك حتى لا يخذلا الظروف التي قد جمعتهما سويا.

الأمل يا صديقي بالفعل هذا هو ما نريده، إعلم أنك لست وحدك ، أنت تمتلك نفسا قوية وشجاعة، عليك أن تعلم من كل هذا أنك لن تبقى وحيدا مهما حصل وأن أصعب تسلق يؤدي إلى أجمل المناظر.

وإلى أولئك الذين هم خلف الجدران، خلف جدران المستشفيات، والذين هم خلف جدران أنفسهم، أنتم تستطيعون الصمود والوقوف مجددا، أنتم لستم ضعفاء، لا تخافوا الموت، فالخوف هلاك، والموت حقيقة لا تزهق أبدا كما أخبرتك. عليك بقطع الأفكار السوداء التي قد تجول في ذهنك واستبدلها بالتفاؤل.

كن أنت سيد الموقف ، سيد التغيير إلى الأبد، لا تجعل أي أحد يحطم حلمك ، فكرك، أهدافك. كن أنت رئيس نفسك ورئيس ذلك التغيير. لا تكن خلف الجدران بل كن من يحطم تلك الجدران. لا تقم بفرض فكرك على أحد ولا تجعل أحدا يفرض فكره عليك، إجعل الحوار سيد الموقف. نحن يتوجب علينا ان لا نقطع الرؤوس لإجل ذلك بل علينا أن نتفادى القطع ونرمم الأفكار بالحجج والبراهين .

لا تنظر لمن خلف جدران المشفى بعين الشفقة، بل أنظر إليهم نظرة الأسود في طلائع الجيوش. هم مجرد أبطال بحاجة ليد تمد العون لهم فقط، لا تكن الطاغية بل كن أنت من يزرع الثمار في تلك الجيوش.

رسالة إلى محارب مرض السرطان

سأخبرك يا صديقي أنني لا أستطيع وصف مدى حبي وفخري بك، إنني لا أمتلك القدرة الكافية على التعبير عن حجم قوتك وجمالك.

فلتعلم أنك من أقوى المحاربين، مشارك في أقوى الجيوش، تلك الجيوش التي تجعل من الإرادة والعزم، الأمل والمحبة دهاناً لأشد أسلحتها قوة وصلابة. ذاك السلاح الذي تمتلكه أنت ولا يستطيع الجميع إمتلاكه.

لن تنكسر ولن يكسرك أي شيء آخر.

صانعو الأمل في الحقيقة هم أنتم.

النهاية

غبت عن نفسي

قد غبت عن نفسي حينما سؤلت عن الوطن وريثما عدت لنفسي أخبرتهم أن الوطن هو أمي.

فهرس المحتويات